من أجل الشيطان

عمرو الجندي

من أجل الشيطان/ قصص

عمرو الجندي

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أ / عبير النجار

أ / مها مجدي

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٥٠٠٠

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ١٨- ٦

من أجل الشيطان

قصص

عمرو الجندي

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهـــداء

علمتني الكثير فأنت زمن لن يعود وأيام دوما اشتقت إليها فمعك أشعر بطفولتي وأتذكر كل ألاعيبك السحرية فقوتك كرجل صنعت مني ألاف الرجال وغموضك تفنن في صنع ألف شخصية مني ، إلى الرجل الذي أشهد أن لا رجل غيره في عالمي .... إلى الرجل الذي علمني كيف تكون الحكمة والكتابة علمني كيف أخط الحروف .

أبى

يا زمنا آخر وعالما آخر يا كل الرجال المحترمين اكتب إليك بروحي وأناملي أكتب إليك بكياني وكل ما تعلمته من مفردات فانا أعلم أنك فخور بى ولكنني أحارب جاهدا ليخلد اسمك بين الكتب والكلمات ليذكرك التاريخ يوما أنك يوما أنجبتني .

حبيب قلبي......شكراً لك ...... شكراً لك ..

أهدى إليك كلماتي تلك وأتمنى أن تقرأها يوما لتعلم أن حب العالم من مهده إلى نهايته قابع في قلبي لك ، أبى صاحب العيون الماسية والقلب الملائكي لك اخط كلماتي فاقبلها سيدي

المقدمة

يدق الباب ثلاث دقات وبعفوية أهدم الحواجز بين الشيطان وأفكارك، كل ما عليك هو إلقاء ملائكتك خارجا وإغلاق كل النوافذ بأحكام لتترك الظلمة تنبثق بين أحشائك، فاليوم من أجل الشيطان سنلتقي سويا وسريا لنمر عبر عالمك السفلى، من أجل الشيطان سندخل عالم النسيان ونهرع بعيداً عن حدود النور، في كل قصة ستجد الشيطان في لوحة مرسومة بدقة مبتسما فاليوم أحيى ذكراه أتقمص شخصيته وأمارس طقوسه .

لا تخف ..

ادخل من الأبواب الآن ، حاول أن تقتل كل العوامل التي تمنعك عنى ، رحلتي معك ستجد فيها التأمل داخل النفس البشرية سأنبش في تفاصيل ملامحك وأمر عبر شريط حياتك وأحرر سجن أفكارك فمن اجل الشيطان ارتكبنا الكثير وما زلنا نرتكب وسنرتكب أكثر مع الدقات القادمة ، خطيئة وفاعل تعنى حياة ما

في غرفة الانتظار حتما ستدخل معي لتأكلك أنياب الهوس الشيطانية وعندما تمر على لوحتي المفضلة ستجد أنني من أجل الشيطان بعت عقائدي ومبادئي، ومع العائدة من الموت ستجد شيطان الرحيل يسحقك عندما يتفنن بلذة ليرسم لك لوحة رحيل مزيفة لكنها داخلك حقيقة مؤلمة ، وعندما تنتظر بين الموت والحياة لن

تتذكر سوى شياطين أفعالك وجرائمك ولن يترك لك الشيطان نهاية مرضية ، وعندما تثور استرح معي على إحدى المقاهي دون الملامح التي ستلتقي فيها بالشيطان نفسه ليتقاسم معك الطعام السجائر الصرخات والخطايا، وعندما يأتي الموت بدون علم مسبق اعلم أنك بين أنياب حادث لن تكتبه يوما في مذكراتك ، عندما تشعر بالصقيع يتسلل في خلسة إلى أحاسيسك فاعلم أنه ظلم قديم عائد إليك من فعل خطاياك التي تشاركت فيها يوما مع الشيطان وعندما يتهاوى جسدك من اثر حادث لتصمت فقد بات وقت الحديث مستحيلا.

لنفتح الكتاب في سكون الآن من أجل الشيطان .

بقلم / عمرو الجندي

١- أنا والآخر

عندما تلتقي الآخر، لا تخف كل ما عليك أن
تواجهه، هناك تقبع ماهيتك وأسرارك السفلى،
تعالى أنا في انتظارك

(١)

إطلالة غريبة قد تكون ليست كشتاء بعيــد في ذاكــرتي ، ولكني أعلم جيدا أن لها طابع خاص في ذلــك المطعـم الــتي تتوسطه تلك السجادة الطويلة التي ربما يعود عهدها إلى إحدى الملوك السابقين الذي انطوى مع صفحات التــاريخ ، كمــا انطوت هي لتشهد أقدام ربما لم تتخيلها مع مهب ريح ولادها ، وتطل الموائد عن اليمين وعن اليسار بمزاج قد يجلب الدفء بطابع انجليزي خالص على شرفات كبيرة تطل بدورها علــى شارع تمر به ألف قصة يومية وسط زحام وهــوس آدمــي ، ولكن تحجب تلك النوافذ بكل الوسائل أي صوت قد يتخلــل إلى عقلك اللاهث بحثا عن ودا من الطمأنينة والصمت الساكن وحين الجلوس بدا لي كل شيء كأنني أتــابع إحــدى أفــلام السينما الصامتة بزخرفتها وبداياتها الضعيفة ، ولكنها تتــرك في النفس نغما غريبا وربما لارتباطي المثالي بتلك الحقبة البعيدة التي

طالما تمنيت أن أكون أحد أفرادها ، فلكم تمنيت أن أكون أحد أبطال ذلك الفيلم " ذهب مع الريح "، الذي يخفـي إحـدى شخصياتي بين طياته الدفينة وموسيقاه التي تشتعل كل يـوم في جلستي أمام مدفأة في انتظاري دائما ليلا ، وربما تمنيت دوما أن أكون أحد صناع السينما الكلاسيكية .

" ماذا تطلب يا سيدي ؟ "

طالعته في ابتسامة غافية في نهر من الأفكار ثم قلت :

" قهوتي المعتادة "

أومأ برأسه موافقا بابتسامة جادة لكنها لا تخلو من الود .

عدت مرة أخرى إلى النافذة مستدرجا الأحداث، ومحاولـة ربطها لتكون مشهدا أستطيع تخليده في مذكراتي العابثة وربمـا بالبحث عنه ليخلو لي في أوقات مللي الشديد بوحدتي ، إنهـا رياح ديسمبر بما تحمله من قسوة نابعة من غضب مـا وتلـك أذيال الملابس اللاهثة في الدفاع عن أصحابها رافعة شـعار " لا تراجع للاستسلام ". وأرى بعض الكلمات المرتجفة راقـصة على شفاه أصابها البرد بالزرقة، نعم هي أدعية بسيطة لبعضهم ربما يتوقف الرياح وتتوقف معه مخاوفه أو ربما سخط تام على جأش الطبيعة، فلكم كان الشتاء دوما غامضا لا يحمل في طياته

سوى الغضب وغروب دوما حتى في ظل النهار المنسحب دون أدنى إنذار مسبق والشمس التي بوهن استكانت بين أضلع السحاب الحادة مسلّمة أمرها في خشوع ، كصبية تطيع أوامر أبيها القاسي دون مناقشة أو تردد ، فما أعنف الطبيعة عندما تعلن الحرب .

قاطع وحدتي الباردة بنبرته الجادة دوما منذ عشرة أعوام و لم تتغير وربما لن تتغير :

" القهوة يا سيدي "

أحنيت رأسي بابتسامة لا تحمل أي معنى سوى المجاملة وقلت :

" أشكرك "

يا لمرارتها كأيام طالما تمنيت أن أحذفها من ذاكرتي السوداء ولكنني أتعطش لها فهي ما تبقيني يقظا ؛ لأعلم أني موجود بعد أن طردت كل المفردات الحياتية وعشقت الحزن والوحدة وتقمص أشخاص لا أعرف عنهم سوى سواد تاريخهم الطويل ، عاودني مرارة القهوة في فمي كأنه العسل المر ينصب في مدخل حلقي كثورة بركان أصيل يصب في أعماقي المتهاوية ، عاودني مرة أخرى بمرارة أكثر فامتعضت وتمتمت بكلمات لا

أتذكرها بالرغم من أنها الآن ،لا على فكل الكلمات زحفت من أرضى و لم يتبق سوى الصمت ومع الرشفة الرابعة تحولت أنا الآخر إلى فنجان من القهوة وربما أكثر مرارة ، الآن أستطيع أن أشق طريقي إلى القاع دون توقف ، أو امتعاض أو تمتمة منسية لا معنى لها .

(٢)

اكفهرت السماء في عمد مسبق وتنازلت عن كل ركن فيها للسحاب المنقشع دون أدنى رحمة، وما يملكه من القتوم والسواد يكفى لتضليل ألف قلب ولإلقاء الحزن في ملايين القلـــوب إلى مائة عام قادمة ، ولكن بالنسبة لي فيكفيني ما أملك من حـــزن عشق الوجود في قلبي، فاحتل كل جسدي وأفكاري ســـويا ، وتبقيت أنا أراقب عزائي في استسلام ، حاولت أن اخرج من تلك البقعة السوداء التي ارتمت في أحضاني واستقرت، وهامسني صوت الموسيقى الخافت الذي يدور في خلسة مقصودة بـــين أركان المطعم العتيق، فناديتُ أحد العمال بابتسامة فارعة على جدران ملامحي المفعمة بالود

" هل لك أن تجعل صوت المذياع أعلى قليلا ؟؟ "

أومأ برأسه في استجابة تامة تعلوها الجدية ولكنها أقل جدية من صاحب القهوة المريرة .

وإذا بصوتها العذب الحنون في هذه الأغنية العميقة المعـــاني يطرق مسامعي ، وبدأتُ في الغناء على مهل مـــستكين مـــع فيروزية الأحلام :

" شو بخاف دق عليك وما لاقيك "

فقاطعني شرود جارف في ملامح ذلك الشخص أمـــامي ، وعلا وجهي دهشة قاطعة، قد تكون آتيه من أثر خنجـــر مـــا

انسل بين أضلعي في غفلة مني وتمتمت في غفلة أشد من شفتاي"

" لا يمكن أن يكون "

ثم ححظت عينيّ وأردفت في ذهول قائلا:

" مستحيل أن يكون إلى تلك الدرجة "

إنه يحمل نفس عينيّ ونفس النظرة العميقة الغريزية المنشأ قوية التركيز، وتلك الخصلات التي تترامى على جبينه تداعب وجهه المائل إلى لون الشمس وقت الغروب وتلك الأنف التي تحمل صفات الملوك بشموخها وكبريائها الحاد .... نعم ... نعم يحمل نفس الشفتان التي لا تتحدثان إلا عندما يشعران بذلك الجفاف من قلة ماء الحديث ونفس الجسد الذي يبدو نشيطا بالرغم من إرهاق الحزن وإعيائه .. إنه .. إنه يحمل نفس ملامحي .. نفس الوجه نفس الجسمان .. واجتاحتني أسئلة غائرة بين أشواك الغموض :

" من هو ؟؟! .. هل هذا أنا وربما أنا في حالة من الهذيان من وقع النوم لأيام لا يتوسطها سوى مباشرة الأكل والشراب..؟!هل تلك مرآتي وربما أنا في حالة جنونية متأخرة تصور لي نفسي ؟ هل بالفعل يخلق من الشبه أربعين ؟! ثم

عدت للوراء متكئا على مقعدي النوفمبرى المـزاج مطيحـا برأسي إلى الخلف، مغمضا العينين هامسا مـع فـيروز تلـك المقطوعة :

" صار لي شي مية سنه عم ألف عناوين مش معروفة لمـين ووديلهون أخبار بكره لا .... باقي المقطع ...."

واستمر الغناء ربما أفتح عينيّ مرة أخرى فيعود كل شـيء كما كان وأعلم حينها أنها مجرد هواجسي وخيالاتي المتـسلمة إلى جنوني الشارد .

(٣)

الآن سأفتح عينيّ ليعود كل شيء كما كان نعم أنه لـــيس أنا.. لا لا إنه ليس هنا بالفعل .. لا لا إنها مجـــرد هـــواجس شيطانية فهمستُ في سكون:

" استغفر الله العظيم ... استغفر الله العظيم "

وفتحت عينيّ في بطيء كأنني كفيف استعاد بصره بعد أمد طويل، ولكن يا لها من كارثة تصدمني للمرة الثانية ولكن تلك المرة تدك أعضائي دكا دون هوادة فقلت متمتما

" أيها العقل ماذا تريد مني ..؟ لو بيديّ القدرة لأطحـــت بك من جسدي ولفرقت بيني وبينك فراقا أبديا "

جحظت عينيّ في سكون وانفتحت أبواب فمي، وازدادت شفتاي جفاءً ناظرا إليه وقد شاركني طاولتي مـــستكينا علـــى إحدى المقاعد في ثبات عجيب وملامح واثقة يتأمـــل قائمـــة الطعام وكأنني لست هنا بالفعل ، حاولـــت الحـــديث لكـــن تحشرجت الكلمات في حلقي فاكتفيت بالنظر إليه في ذهـــول تام أتأمله، وكأنني أمام مرآه ترسمني بدقة متناهيـــة ولكنـــها لا تحمل نفس الحركات ولا ردود الأفعال التي تعودتها من يـــومي الأول .

استمر في تأمل قائمة الطعام باهتمام شديد ثم بنـــبرة قويـــة موجها الكلام ربما لي قائلا في نفور:

" ألا يوجد شيئا هنا أشتهيه بالفعل ؟! "

ثم سكن للحظات وبسخرية قال :

" يبدو أنه لا ملاذ في دنيا العجائب "

فهمست لنفسي وكلي حواس مشتتة قائلا:

" ربما انتقلت عبر بوابة زمنية لعصر قديم، وهذا أنا في زمن آخر وعلي أن اذهب الآن وربما تاهت مني المسافات عندما استغل أحدهم غيابي ونقلني دون أن أدرى ،لامتلك الشجاعة وأنفذ الآن من ذلك المكان بلا عودة ".

ولكن قدماي مثقلة إلى حد الشلل فمن المستحيل أن تترك ذلك المشهد بلا فضول غريزي ربما هو توأمي ولا أعلم ولكن كيف ؟؟ وعاودني هاجس يحدثني بنبرة أشبه برجل ذو نبرة فولاذية :

" في تلك الحياة لا شيء مستحيل "

نعم أصدقه القول فلا شيء مستحيل ولكن هل ..؟ فقاطعني صوته في ثبات ناظرا إلى بحدة وابتسامة تتوسط ملامحه:

" اعذرني فقد وجدتك وحيدا فأتيتك دون استئذان وشاركتك وحدتك "

أومأت برأسي في قبول ولا أكاد أن أبلع ريقي فإنه يحمل نفس الصوت الجهوري الذي تصدره أحبالي الصوتية ، ولكن أيلاحظ الشبه بيننا ؟! أيلاحظ أنه أنا ؟! والماكثون هنا أيلاحظون ذلك ؟! لا أرى أي نوع من علامات التعجب ولا الابتسامات التي تنم عن العجب ! ، ألا يهز أحدهم رأسه هنا عجبا من ذلك المشهد ، طالعت المكان كي أجد من يسعفني أو يهشم رأسي وتنتهي كل البدايات ، حاولت العثور على تلك الكلمات على الشفاه في أركان المطعم ، على الطاولات المواجهة ، على وجوه العاملين ولكن لا جدوى من ذلك كله، فإن العالم قد غاب في لحظات من السخرية مني .

(٤)

لوحت إلى أحد العاملين في سرعة جنونية لم أدر من أيـــن أتت ! وطلبت فنجان قهوة مرير آخـــر ، ثم عـــدت بعـــينيّ المستسلمتين للمحظوظ بينما من يحمل ملامحي قد قـــرر مـــاذا سيأكل؟ فأتاه العامل ناظرا إليه بعادته الجدية دون أن ينـــبس بكلمة أو إظهار أي نوع من علامات التعجب بما يجرى هنـــا، ما هذا يا أنت ؟! انظر هنا ؟ هل الأمر كلية هو شيء اعتيادي تمر به يوميا ، أم أنك فقط لا تكترث ؟! .

انتهى من طلب الطعام وغادرنا العامل بينمـــا عـــاد إلى في ابتسامة خجولة وقال :

" أتأسف لمقاطعتك ولكن أحيانا نحتاج إلى المؤانسة وبدا لي أنك أنت الآخر بما تحتاج إليها "

نظرت إليه بينما تحركت شفتاي دون كلمات بينما أردف قائلا:

" الحياة ممتلئة بالعجائب والأحزان وتنعدم فيهـــا الأفـــراح القلبية ولكن أين نحن من كل ذلك "

نظرت إليه وقد قتلني الذهول وحدثت نفسي :

" ألا يلاحظ الشبه بيننا ؟؟! إنه بالفعل أنا "

ثم أومأت برأسي بابتسامة لم تغير من ملامحي شيئا وقلـــت ويكاد يكون صوتي غير مسموعا :

" نعم أين نحن من ذلك ؟! "

وراودني سؤال لم أتوقعه ولكن سألته :

" ماذا تفعل في الصباح ؟"

ضحك ضحكة شريرة مائلا للوراء كأنه أحـــد العظمـــاء، ووضع ركبته فوق الأخرى ثم أسبك أصابعه يديه فنظرتُ إليه بحدة ثم قال :

" أخرج في الصباح أتفقد الطرقات أتخذ الشمس مصباحي، وأصنع من حبال النهار ألف فكرة ليوم قادم جديد "

نظرت إليه في دهشة بينما أعلنت الــسماء عـــن غـــضب مرتقب شديد فالسماء زادت قتوما غامضا ، فلكم كان غضب الطبيعة مريرا لا يحتمل

ثم أردف قائلا:

" لا تأبه للطبيعة أيها المتحذلق ، فالإنسان روضها منذ عهد قديم ويوما سيأتي وأمنع الأمطار أن تهطل فلا تبلـــل أطـــرافي المعقدة ".

نظرت إليه في دهشة أقوى من الأولى وعاودته بسؤال قائلا:

" ماذا تفعل في الحياة ؟! "

فنظر من خلال النافذة وأشار بإصبعه السبابة في كبرياء وقال :

" أترى تلك التماثيل المتحركة وتلك الأحداث التي تُحدثها من افتعالات ومعارك وحب وشهوات وأرق وملل ومخاوف وأطماع لا تنتهي ؟ "

أومأت برأسي إيماءة بسيطة قائمة ناظرا إليه وبهمس قلت :

" نعم "

" إن وظيفتي أن أتلاعب بتلك التماثيل أضعها أينما أشاء ، أجهضها حين أريد ، وأسخر منها عندما يحتلني جنوني ، فأنا أعيش من أجل أن أتمتّع بالحياة من خلالها ، فكم هم مساكين ولا يدركون معنى الحياة ، فأنا ألقنهم دروسي الخاصة " .

نظرت إليه في امتعاض وعينان امتلكتا من الشجاعة ما يكفي لإطاحته، ولكن جاء العامل حاملا الطعام ومن خلف ذراعه وهو منكفئ على وضع الطعام وقد بدت لي ابتسامته كذئب محترف أو مجنون غبي وتواجهت العيون تبحث عن مغزى ما.

(٥)

الذي يحمل نفس ملامحي وبينما يتصبب الطعام عرقا يرسم بخاره الأهوج سحابات ليست كالتي تحتل السماء ، أمسك بالملعقة كخنجر وأشار لي بطريقة أرستقراطية مولعة إلى تلك اللوحة التي تعود إلى فن قديم يتوسطها فتاة عارية تنهشها غصون الأشجار الغائرة بجسدها، وصرختها المتجسدة ، أكاد أسمعها عبر أذناي ، ربما صورة لا تليق بمكان يقدم الطعام فتلك الصورة المتوحشة تقتل أي شهية ستأتي بعد ذلك العذاب المهين ثم قال :

" هل تعلم أن في العذاب لذة ؟ "

فنظرت إليه وأنا لا أعلم ماذا يقصد بالضبط، وارتفع حاجبي الأيمن عنوة ثم أجبت :

نعم هناك بعد الأحاسيس التي لا تملك اللذة إلا لارتباطها بالعذاب "

وبسرعة كالبرق وبصوت قوى أجش أجاب :

" كالحب مثلا ؟! "

تقابلت العيون في غموض تام ، وعم الصمت للحظات ثم ابتسم ابتسامة غائرة بين ملامحه ثم قال :

" الحب هو ذلك الكائن المحتل الذي يكويك عذابه ولكنك ببلادتك الآدمية لا تطيق التحرر منه رغم أوجاعه الصماء "

وصمت قليلا بينما انزوت عينيه ترمق الشارع ولا تحمل ملامحه أي رد فعل سوى الغموض ، ثم نظر إليّ بصورة مرعبة فجأة وقال :

" أنا لا أطيق الحب ولكني أبحث عنه لأرديه أرضا أو ألثم أنفاسه وأقتله وأنتزع الحبيبة ممن يحب وألوثها وأرميها في أول فرصة في أول صندوق للذكريات المنسية "

تطلعت إليه وتكاد يداي أن تقتله عمدا، ولكن لا أعلم لما فضلت البقاء تاركا شفتاي تتعارك في محاولة لالتهام غضبي ، ثم أكمل بينما بدا في تناول طعامه وكأنه يتحدث إلى نفسه :

" إنني في كل ليلة أخرج أدوس الطرقات وأنهب من عبق الحياة، وأستلذ بقلب الغائبين في دنيا الأحلام أشرب الخمر وتغطيني في الشتاء الأوحال ، وربما يأكل جسدي تراب السيارات المسرعة على طرق لا أعلمها وتخطفني الاتهامات بأني في حالة من الهذيان، وأخيرا أرمق الليل زاحفا إلى أراضي أخرى، فأعود كبلور لامع يضيء الطريق للشياطين، وعندما أتوسد راحتي وتطل الشمس بنورها المقدس فأتأوه لعذرية الشروق فتجتث مفاصلي وتذهب الليلة في وادي من النسيان

وأكتم الأحلام، فأحلامي معقدة أكاد لا أفهمها ولكني أكتبها كل ليلة في مذكراتي السوداء "

ثم ابتلع كوبا من الماء، ونظر إلى بعيون جامدة وملامح مقفرة بينما حاولت ابتلاع ريقي الغائب الذي امتنع عني ثم أردف قائلا :

" نعم أنا الليل بتفاصيله الموحشة "

(٦)

امتعضت عيناي دمعا نـــاظرا بحـــزن أشـــارك الـــسماء الأمطار،الدموع تزداد بفعل ذكريات قديمة موحشة ، تتأرجح عيوني خلسة ما بين ذلك الجالس أمامي في بهو ، يحمل نفـــس ملامحي ، أتمنى لو اقتلع عينيه وأمحوا كل مخططاتـــه الـــشيطانية وأزيح طلاسم يديه من على جثث ضحاياه وارتمي إلى عقلـــي سؤال فردتنه سائلا :

" ماذا تفعل في أوقات فراغك ؟"

نظر إلي بينما ينساب الحساء من علـــى أطـــراف شـــفتيه وانسدل لسانه زاحفا يتلمس شفتيه ثم بنظرة فولاذية قال :

" أرسم وأنحت "

" ماذا ترسم وماذا تنحت ؟ "

" أرسم صور مجروحة كتلك التي هناك للفتاة التي تـــدكها حصون غصون الأشجار وأنحت صور العاريات "

" العاريات ! "

" ليس كل العاريات يا صديقي هي كل من تجردت مـــن ملابسها "

نظرت إليه للحظات وساد الصمت بينما ظل هو منـــهمكا في تناول وجبته بلذة غريبة لا يملكها سوى حيوان وقلت:

" إذن أنت تدرك جيدا أن العرى هو العرى من المبادئ والأخلاق والدين والإيمان والاعتقاد في الجنة والنار ".

" الجنة والنار .. ! "

" نعم "

" لما كل البشر مهووسون بتلك النظرية العميقة والتي لا أكاد أفهمها "

" ماذا تقصد ؟! "

" ذلك الاعتقاد وعودة الروح إلى الجسد والحساب المنتظر وما إلى ذلك "

" معنى ذلك أنك لا تؤمن بالجنة والنار ؟! "

نظر إلى للحظات و لم ينطق بسوي الصمت بينما انخرطت ضروسه تطحن الطعام في بطيء شديد ، وظلت عيناه معلقتين على ملامحي كأنه يدرك شيئا ما ثم قال:

" حدثني عن الحب ؟ "

نظرت إليه بابتسامة خفيفة لم تغير من ملامحي شيئا ثم قلت:

" الإيمان بالحب كالإيمان بالأديان والإخلاص للحب كالإخلاص للوطن "

ثم نظر إلى بامتعاض ثم قال:

" وهل أدخلك الحب الجنة ؟ "

ساد صمت لحظي ثم أردف قائلا :

" أم أدخلك نار الدنيا وصرت معذبا في الدنيا كما ستعذب في الآخرة ؟! " .

غبت للحظات محدثا نفسي :

" إنه يتكلم عن الدنيا والآخرة ، فكيف لا يؤمن بالجنة والنار ثم رفعت عيناي في بطيء شديد وقلت :

" الحب هو العذاب الذي طالما ننتظره طويلا، وإن لم يأت بحثنا عنه وإن لم نجده انتظرنا خلف الأبواب في حزن عميق ننتظر في شوق مؤلم قرع الأبواب "

" ولما كل ذلك ؟"

" لأنه الحياة بعذاها المجنون ، الصدق الوحيد في تلك الحياة البائسة والمشاركة لكل أنواع الجنون ،الأمان من الخسوف المجهول ، الرغبة القصوى في الإخلاص والاشتياق الذي ينتهي دوما بدفء الأحاسيس والدموع الدافئة "

نظر إلي في ذهول وجحظت عيناه ثم سألني بصوت ضعيف:

"وهل أحببت ؟ "

" نعم أحببت "

" وهل تعذبت ؟ "

" ككل من تعذبوا ولكنهم لم يتوقفوا بحثا عن عـــذاب في مكان آخر "

" أليس غريبا ذلك الحب ؟! "

" معقد إلى أبعد الحدود ، مفعم بالألغاز ولا يعلمه ســـوى من أحب، ولكن يتبقى سؤال عند كل نهاية فتحاول مجددا أن تعيد الكرة لتجد إجابة ولكن يظل كل شيء في غموض ".

" ما أعلمه عن الرغبة هو الانتظار إلى الذروة لتحظى بأقوى أنواع اللذة في حجرة لا يملأها سوى امرأة جسدها الثعبـــان، وابتسامتها الشيطان، وحواسها تتضرع في أن تـــسقيك ليلـــة وكأنك في موجة عذرية وتحاول أن تأخذك إلى بر من الأمان".

فنظرت إلى الشباك مطلا على السماء ثم سكنت للحظـــات وقلت :

" إنها فقط الرغبة الشيطانية "

وساد الصمت على صوت أنفاسه وأنفاســـي المتـــصاعدة لتتلاحم مع الهواء المحتجز خلف قضبان الشباك .

(٧)

هطلت الأمطار وكأنها تعزف لحنا عميقا يمـــلأه الحـــزن في تناغم غامض وظلت الأقدام تهرول تستتر بإحدى الجدران ، أو الأسقف المبللة الغاضبة بينما وضعت إحدى قـــدماي فـــوق الأخرى وأشعلت سيجارتي ورسمت ذلك الدخان على لوحـــة الهواء القابعة في مواجهتي وعدت للوراء أنبش في الذكريات ، لكم كان الحب جميلا في عهدي القديم مع حاملة العيون البنية والشعر الليلي الحالك ونغم الصباح على صوتها الرنان يمـــلأني، وتذكرت كم كانت قاسية الحياة لتفصلنا في غموض، وأســئلة بلا إجابات مقنعة ، وعاودتني ضحكتها الدامعة ومنديلها الذي لا يفارقها فابتسمت في حزن شديد وتمنيت لـــو أن للحـــب رائحة نعرفه بتا فنحول عنه زاحفين بكل القوى الممكنة بعيـــدا عن عذابه، وعاودتني ابتسامة صافية عندما شـــعرت بكفهـــا الرقيق يحنو على ملامحي فيزيل دمعي المتساقط ، واجتاح صمتي سؤال من ذلك الذي يحمل ملامحي .

" كيف تقضي ليلك ؟ "

" كيف تقضيه أنت ؟ "

" أمارس كل المحرمات لأجد السعادة "

" وهل وجدتها ؟ "

" في كل ليلة يخيل لي ذلك ولكنني لا أعلم "

هز رأسه ناظرا إلى الأرض ثم أردف بصوت غير مســـموع قائلا:

" لا أعلم "

ثم نظر إلى وسألني بنبرة ملحة :

" كيف تقضى ليلك ؟ "

" لا أدرى ولكنه يمر في بطيء واقتضاب وربما عذاب "

" ولما كل ذلك؟ من أجل الحب ؟أم من أجل البحث عنه ؟ أم من أجل ماذا؟! "

" ليس من أجل الحب فقط "

" إذن لما كل ذلك ؟! "

" لقد افتعلت في حياتي الكثير من الحماقات وخالفت ديني كثيرا وقتلني الجهل مرارا وأضعت وقتي لسنوات دون جدوى ، وتنازلت عن كل الأحلام، ولم يتبق سوى حلم واحد "

" وما هو ؟ "

" إرضاء السماء "

" إرضاء السماء ! ماذا تعنى ؟! "

" أعنى إرضاء الله ومحاولة الوصول إلى كرمه ورحمته "

نظر إلى طويلا وظلت عيناه شاردتان تتفـــرس ملامحـــي، وارتطمت بشفتيه العديد من الأسئلة ولكنه لاذ بالتردد الـــذي غلبه فتحول إلى كتلة من صمت مخيف .

(٨)

ذهبت شريدا أحيى حفل عزلتي ، بينما تراءت إلى عقلي الأفكار وذهبت الأفكار جميعا في اقتناع أن كل شيء سينتهي، ستنتهي الأيام ومعها العمر كما انتهت أيام السلطة والحب والطفولة والبراءة ، وربما سيأتي يوما تصاب به الذاكرة بالهرم الشديد وتضيع معها حتى الذكريات التي تأتى بين ابتسامة وأسى وندم ولكنها تبقى أخيرا أحداث مفعمة بذاكرة شخص ما ، وبين الشرود احتاح السماء غضب عظيم لم أعتاده حتى في كوابيسي الصارخة ، السماء تصرخ في غضب مبين ، البرق يرسم عينين غاضبتين في جوف السماء ، الرعد يقتلع القلوب وتهرول له الأقدام وتعلو معها الصيحات المكتومة من خلف نافذتي حتى المطعم أصيب بالارتياب من وقع الأمر، بينما تسمرت عيون ذلك الذي يحمل ملامحي في أم عينيّ ، ورأيت مائة ألف علامة استفهام تقتلعه من شخصيته الغامضة المبهمة، ووجهه المتجهم الذي يتوارى خلفه ألف قصة ، جحظت عيناه وتشنجت يديه وأصيبت عيناه بالرجفة و لم يمنع ذلك احتفاظه بطريقته الارستقراطية جدا حتى في إعلان الخوف والحيرة ، نظر إلى في تحدى واضح بينما تعلن السماء عن غضب أكثر وربما لن ينته ثم قال :

" هل تعترف بالقانون ؟ "

" أي قانون تقصد ؟ "

" أي قانون ؟ "

" نعم أنا أعترف بالقوانين وفوقها جميعا قانون الـــسماء .. وأنت ؟ "

" إنني لا أبالى القوانين فأنا صانع القوانين ، ولا أحتـــرم أي سلطة فأنا فوق أي سلطة "

اعتراه كبرياء عارم ولكنه مشتت. وتكـــورت الـــسماء في صورة رمادية قاتمة أقرب إلى السواد المتلفع بالغضب الجموح ثم قلت متطلعا بغضب أكثر :

" قانون السماء فوق كل القوانين "

فرمقني بنظرة عابرة بينما يؤرقه ذلك الغـــضب الإلهـــي ثم أردفت قائلا:

" من السماء تأتى كل القوانين .. المصير ، الرزق ، القدر ، الحب والموت فاحترام السماء هو احترام كل القوانين والإيمان بها هو إيمان لا يقبل أي نقاش " .

فنظر إلى بينما تكور في كرسيه الخشبي وامتلأت عينيه بحيرة مشردة على طرقات السماء من خلـــف النافـــذة ثم ســـألني بامتعاض :

" ماذا تعرف عن العذاب ؟ "

نظرت إليه بابتسامة يشوبها صوت الرعد الذي تمنعه النوافذ من التسلل إلى جوف أسماعنا والصهيل بصرخة علـــى ممـــرات المطعم وكأنه قادم سريعا، فلا مكان للاختباء من الغـــضب ثم قلت :

" العذاب هو أن تعذب نفسك أولا ومن ثم الآخرين "

" كيف ؟! "

" أن تقتل الرحمة في النفس ذلك عذاب ، أن تلون الصدق بالكذب ذلك عذاب ، أن تقتل الحب ذلك عذاب أكـــبر ، أن تعيش بلا جدوى بلا هدف فهذا عذاب اكـــبر واكـــبر ، أن تذهب من هنا دون عمل تُرحم به فذلك كل أنواع العذاب "

وهنا ارتفع صوت الآذان يختلط بصوت السماء الغاضـــب والأرض العطشى التي تشرب بنهم شديد وتكتم أباريق الماء في جوفها وتلاقت العيون كأنما كل منا ينظر في مرآة

" الله اكبر الله اكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشـــهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمد رســـول الله ، حي على الصلاة حي على الصلاة ، حي على الفـــلاح حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله "

ملأني صوت الأذان فذهبت سريعا أزيل الغبار عن ذكريات صباي العتيق وزحفي سريعا إلى المسجد لالتقى بالأصـــدقاء ،

كنا هناك ما زلنا نرتدي عباءة النقاء والخوف من الألم وعقاب الله السريع ونتعلم دروس الحياة بابتسامة لن تعد ، فغمغمـــت بصوت لن يسمع بفعل الطبيعة الثائرة الذي يقودهـــا الرعـــد الجامح :

"تبا لك أيتها الحياة تغتصبين دوما النقاء والطهارة "

(٩)

عادت لي مبـــادرات الحـــب ســـريعة تـــسبقني إلى وادي الذكريات في حركات كلاسيكية اصطدمت بطلبي نوعا آخـــر من القهوة ليس أقل مرارة من الأولى، وتابعت الرجـــل علـــى الجانب الآخر وهو يحتسي الطعام في بطيء شديد يتصبب عرقا وتشوب ملامحه زفرات من الخوف والأنين وعينان ســـكنتهما الحيرة والأسئلة الهاربة إجاباتها، ما لبث أن نظر لي ولا تحمـــل ملامحه سوى شفتان أشرفت على الهمس بسؤال فسأل بصوت خافت وعيون في أوج الانتظار :

" هل تؤمن بالحياة الأخرى ؟ "

" كما أؤمن بتلك الحياة ؟ "

" وإلى أي مدى تؤمن بتلك الحياة ؟"

" كما تؤمن أنت بالرعد وهمسه الصارخ "

" اللاضمير ؟! "

" هو أن تقطع السلك الشائك بين أخلاقك وهوس أفكارك المحمومة المغلفة بأساليب الشيطان المنتظر حد بابـــك دومـــا في اشتياق، أن تعتلي منصة اللامبالاة تقتل نفسك أولا وتحول عن شعور من حولك، تقرع أبواب الرذيلة وتـــستبيح المحرمـــات كحلال يقين "

نظر إلى بدمعة تختفي في جوف عينيه ثم تعلقت عيناه بإحدى السحب القاتمة السواد ثم ارتجفت شفتاه ودون أن ينظر إلى قال:

" اكتشفتُ أني لا أبالي الموت ولا أحترم السلطات ولا أخضع للقوانين وقد أتنازل عن الأشياء، كل الأشياء "

تنهد في حزن دفين ثم نظر إلى بدمع لا يكترث لرباطة جأشه ثم أردف قائلا:

" لم أدر أين السعادة فقد ارتكبت كل المحرمات وسرت على كل الطرقات وحطمت قيود القلوب العذراء ونبشت آدميتها وخلُفت ورائي مدينة من الأوجاع يسكنها كل من صادفتني بهم الحياة ، أحببت حب المخمورين وخيانتي كانت أعظم من خيانة اليهود ، عصيت الرحمة في قلبي وتضرعت للقذارة واتخذت الشيطان خليلا "

ثم ابتسم في فتور وتلاقت دمعة من عين واحدة بابتسامته الباهتة ثم قال :

" حدثني أكثر "

فحدثته عن الموت والعقاب وأن يصاب أحدهم بالعار ، حدثته عن الضغائن ، وعندما حدثته عن النار ارتجفت عيناه وسمعت تخبط أسنانه ولمحت المطر بعينيه وجحظت بدورها

لتلتقي بغضب السماء التي تحولت إلى مارد لا يرحم ، السماء تقذف بحممها والأرض تهتز من فوقها وقع الأقدام مهرولة، وأنا بعيني أراقب في دهشة ما يجرى ، الأشجار مسرعه بأغصانها نحو اليمين ونحو اليسار وقد تسمرت قدميها فما منقذ تستغيث بالهاربين عل من يسمعها فيجيب استغاثتها ولوحت بعينيّ إلى السماء ومرت أحداث وئيدة تتخبط بذاكرتي وتحملني الذكريات في عنف بين الوداع والخطيئة والألم، ونادرا بين الابتسامات المهمشة بين جدران ذاكرتي ويعزز كل شيء لون البرق الناري في السماء، وصوت الرعد الخاطف للطمأنينة في القلب وعدت لأستطلع من يحمل ملامحي، فلم أجده فدرت بعيناى في سرعة ولهفة وغمغمت :

" أين ذهب ؟ "

ارتمت عيناي بين جدران المطعم أنقب عنه في كل مكان فلوحت إلى إحدى العاملين في سرعة فجاءني مسرعا فسألته في لهفة وعيون لا تطيق الانتظار:

" أين الرجل الذي كان بصحبتي ؟ "

نظر لي وكأنه لا يفهم ثم قال بدهشة:

" أي رجل ؟! "

نظرت إليه في دهشة شديدة ثم قلت :

" الرجل الذي كان هنا يتناول طعامه على طاولتي "

فنظر لي في دهشة أشد من دهشتي ثم قال في عدم اكتـــراث وهو يعطى لي ظهره مستسلما لنداء من إحدى الزبائن :

" لم يجلس هنا أحد سواك و لم يشاركك أحد طاولتك "

شردت للحظات وفتحت عيناي كي أوقظها ونظـــرت إلى الشارع، فلم أجد سوى الشمس في جـــوف الـــسماء وقـــد أسدلت ستائرها الزرقاء .

٢- غرفة الانتظار

هنا ستنتظر معي ، أنا وأنت والشيطان ، لن
يأخذك الموت من بين أنيابي فالرحيل عنى دربا
من المستحيل

(١)

" سيُحكم عليه ربما بالنفي مدى الحياة "

" لماذا كل ذلك ؟ فكل ما ارتكبه فعليا هو الانتقام لأجـــل الحياة "

" ماذا تعنى ؟! "

" أعنى أن كل ما فعله كإنسان أنه قتل انتقاما لأخته الـــتى قتلت عمداً على يد أحد المخمورين الأغبياء "

" ما تقصده هنا أنه عالج المسألة بعدالته واستغنى عن عدالة السماء "

" عدالة السماء ، إنها كلمة أكبر بكثير من وطـــئ وقعهـــا القدسي "

نظر إليه في حيرة من أمره، بينما احتسى رشفة من قهوتـــه شديدة المرارة ثم قال بنوع من الحيرة :

" ماذا تقصد ؟! "

" أقصد أننا نحن البشر لا نفكر عندما نخسر أحدهم، فما أصعب أن تصحو في اليوم التالي فلا تجد من يملك ذلك الجزء من ذكرياتك وكأنه شيئا و لم يكن " .

ثم صمت الاثنان للحظات بينما نظر أحدهم إلى السحابات الرمادية التي تغطي تجاويف السماء المتبقية، ثم عاد بناظره أدريان ليحملق بتلك القهوة الممتدة أمام كريستيان وبطريقة تشبه طرق النبلاء أردف قائلا :

" هل تعلم ماهية ذلك الشعور بالانتظار الذي لا ينتهي ولن ينتهي سوى بانتهائك في انتظار شيء ما مع علمك المسبق أنه لن يأتي ؟ "

نظر إليه أدريان بلا أي رد فعل ثم قال :

" وهل هذا يسمح للبعض بارتكاب الجرائم من أجل الانتقام ؟"

ابتسم كريستيان ثم قال :

" قل للتنفيس أو ربما قل للانتقام من الفراغ المخلف بعد رحيل أحدهم "

رشف أدريان قهوته في صمت مريب في ظل تساقط الأمطار على مرمى النافذة القابعين خلفها بينما قال أدريان بنبرة متألمة :

" ما أصعب أن ننتظر في غرفة الانتظار "

أومأ رأسه كريستيان بالموافقة ثم قال بنبرة غير مسموعة :

" نعم غرفة الانتظار ، غرفة الانتظار " .

(٢)

لم يكن إيهاب يعلم بموت أبيه بعد وصوله فرنسا بثلاثة أيام، ولكن مر الثلاثة أشهر ليعلم الآن وهو في طريقه إلى ذلك المقهى ، لم يستطع أن يلقى كلمة سلام لأبيه قبل الذهاب ، لم يكن هناك ليقبّل رأسه وهو في ردائه الأبيض ، ارتطمت بقلبه الأفكار وتلاعبت بقلبه الهواجس ولكن شيء ما اصطحبه إلى ذلك الطريق ليقابل على صديقه المغربي

" أهلاً على "

" أهلاً إيهاب "

" هل الحياة دائما تقذفنا في غرفة الانتظار؟! "

نظر إليه باهتمام بالغ وامتلأت ملامحه بالحيرة الاستفهامية ثم قال باهتمام :

" ماذا تقصد ؟! "

" لقد توفى أبي يا على "

تساقطت دمعة منه وامتعضت شفتاه وتقابلا حاجباه في زحام ضيق يرسمه الحزن والألم ثم أردف قائلا :

" أترى تلك الساعة في يدي ؟ "

فابتسم على ابتسامة باهتة ثم اقترب منه وأومأ رأسه بنوع من الأسى ثم قال :

" نعم ، إنها جميلة وذات ذوق عالي "

ابتسم إيهاب ابتسامة مبللة ثم قال :

" لقد أهداها لي أبي قبل مجيئي هنا بسبعة أيام قائلا دائما الهدايا تذكرنا بمن ذهبوا ، فهناك دائما شيئا مرتبط بما نملك من الأصدقاء والأقرباء "

ثم ابتسم ابتسامة عريضة ثم أردف قائلا :

" عندما نظرت إليها الآن عاد سجل الذكريات مفتوحا على صفحاتي معه ،وتلك المشاهد التي لن أنساها مهما طال بي العمر "

فقال علي بنوع من المواساة :

" هون عليك يا إيهاب "

فابتسم إيهاب معطيا ظهره لعلي ثم قال :

" أتعلم أن غرفة الانتظار كل يوم تزيد أعدادها يومًا بعد يوم، ولن ينتهي القادمون إليها ولن تغلق أبوابها يوما ، فكلنا نتجمع فيها دون سابق إنذار تفرقنا الصفات والمعالم والجنسيات ولكن يجمعنا الانتظار " . أومأ برأسه موافقًا، بينما ظل الاثنان يحدقان في السماء بنوع من التأمل ثم قال إيهاب بنبرة صوت متحشرجة :

" غرفة الانتظار "

(٣)

" ألن تأتي معنا يا سمر ؟ "

" لا فأنا في انتظار أختي سحر هنا ستأتي بعد قليل وسألحق بكم بعد ذلك"

" كما تحبين، ولكن لا تتأخرين سنذهب نحـــن لتحـــضير الحفل من أجلها "

ابتسمت ابتسامة موافقة ثم ذهب الجميع وتبقت في ذلـــك المقهى تنتظر فهي لم تر أختها التي تعمل بالخارج منذ ثـــلاث سنوات وكم تشتاق إليها ، فهي توأمها فكيف يكون النسيان؟ فكيف تكون الحياة دون النصف الأخر من الروح ؟!.

إنه جرس الهاتف ويحمل رقما من إحدى الـــبلاد الـــتي لا تعلمها

" أهلاً سمر "

" أهلا حبيبتي ، من أين تتحدثين ؟

" إنني أتحدث من ايطاليا "

جحظت عيناها وتحشرجت الكلمات ثم ســـكنت علـــى الهاتف بينما قالت سحر:

" إنني آسفة ولكن ظروف العمل منعتني من المجيء اليوم "

ابتسمت سمر بحزن شديد ثم قالت :

" لا عليكِ سأنتظرك هنا ، متى ستأتي ؟ "

قالت سحر بنوع من الحرج

" لقد ذكرت لكِ سابقا أنني لن آتي اليوم، ولكن إن شاء الله سأتدبر أمري وأستطيع المجيء خلال شهر "

سكنت سمر مرة أخرى على الهاتف محاولة جمع بقاياها ثم قالت :

" فقط كوني بخير وراسليني دوماً "

قالت سحر:

" سأفعل وأنتِ الأخرى عديني بذلك "

قالت بابتسامة باهتة

" أعدك "

أغلقت سمر الهاتف بينما انصبت على علبة السجائر وأشعلت سيجاراً وحدثت نفسها قائلة:

" لمتى سأظل معلقةً في غرفة الانتظار ذلك العذاب يصدعني ويقتلني الملل والضيق والخوف . يا لها من غرفة ! الانتظار فيها مستحيل ولكننا فيها نتخطى المستحيل فلا شيء أمامنا سوى تلبية أوامر الانتظار المهين ".

ثم بنوع من السكون المؤلم نظرت للقادمين والراحلين ممـــن بدأت دقات انتظارهم للراحلين، وممن انتهت دقات انتظارهم للقادمين هامسة في أسى :

" يا لا لغرفة الانتظار هذه! قليلاً من يخرجون منها وكثيراً من يدخلون " .

(٤)

" لقد ذهب وتركني وحيدة في تلك الحياة وأنا أناهز الأربعين الآن من العمر"

" لا عليكِ يا سارة ، يجب أن تجتازي تلك المرحلة فأنتِ قوية دائما "

نظرت إليها بأعين يغطيها لون المياه المالحة وحاولت النظر إليها ببسالة، ثم قالت بنبرة حزينة :

" من أين لي بالقوة بعدما فقدت أهم عوامل القوة وأسباب الحياة ؟!، فقد كان هو الإنسان الذي يعطيني دوما الدفعة البشرية العميقة لأستمر وأتحدى العواقب ، من أين لي بالقوة الآن ؟! وكيف ستكون الحياة دونه ؟! "

نظرت إليها نظرة مواسية ثم قالت:

" لا عليكِ يا سارة ، كل ما في الأمر أنها مسألة وقت، وستعلمين جيداً أي الطرق ستسلكين وستجدين دافعاً قوياً وأنتِ ما زلت شابة وأمامك متسع من الوقت لتستمري ".

ابتسمت ابتسامة ساخرة ثم قالت :

" نعم أنا شابة في انتظار الموت !! "

" لا تقولي ذلك يا سارة ، ستجدين سر الحياة قريباً "

ثم ابتسمت ومسحت على ملامحها وأردفت قائلة :

" حتى الموت يا سارة فيه من الدروس ما نتعلمها دوما "

نظرت إليها سارة نظرة متأملة ثم قالت :

" هل تعلمين شيئاً ؟ "

نظرت إليها بأعين متسائلة بينما مالت بوجهها ناحية اليمين ثم قالت سارة :

" إنه الانتظار.......الانتظار يا صديقتي "

فرمشت أعينها في سرعة اختلطت بالحيرة ثم سألتها قائلة :

" ماذا تعنين بالانتظار هنا ؟! أعني أي انتظار تتحدثين ؟! "

" انتظار من رحلوا ولن يعودوا ، أقوى وأشد أنواع الانتظار هو أن تنتظري شخصا ما مع علمك المسبق أنه لن يعود ، عندما تختارين إحدى المقاعد في إحدى الغرف المظلمة داخل عقلك مع فنجان القهوة المرير ترمقين تحت تأثير نور خافت أقرب إلى الظلمة ألبومات الصور التي تجمعك بشخص ما قد ذهب دون إنذار، تاركاً خلفه بعض الصناديق من أعياد الميلاد وغيرها من الذكريات المخلّفة عند مرورك بإحدى الشوارع التي شهدت لكما مواقف عديدة وعندما يهل عليكِ فصل الشتاء وتحاولين ملامسة الدفء في عينيه واحتضان أطرافه

للوصول إلى مرحلة الأمان من ذلك الرعب الذي يلقيه ذلك الفصل في القلوب، فلا تجدي سوى الصقيع وصورة شبح لرجل رحل في تاريخ ما ولن يعود ، نعم لن يدق جرس الهاتف مرة أخرى،ولن أسمع طرقاته على الباب ولن تفاجئني مرة أخرى رسائله التي انتابها القلق من فرط شعوره بالمسئولية تجاهي "

ثم سكنت للحظة وبابتسامة باهتة أردفت قائلة :

" عندما ندخل غرف الانتظار، لا نملك شيئاً سوى انتهائه أو انتهائنا "

سنغلق الباب الآن ، سننظر حولنا لنجد أن القصة دائما مستمرة، ولن تنتهي فإنها مرتبطة بصندوق الذكريات ورسائلنا المعلقة في تلك الذاكرة الإلكترونية ، ستجد دوما من يثير الذكريات في موقف ما أو ربما في صباح ما ، ربما مع تناولك لفنجان قهوة في مكتبك أو جالسا في شرفتك ، سندخل حتما غرفة الانتظار نتخبط في شيء ما خَلّفَه الماضي ، إنه دائما مرتبط بالتذكارات الملقاة في حجرتك، متعلق بالوقت الذي ستقضيه منتظراً وبنوعية الأشخاص الذين نقابلهم في غرفة الانتظار.

لنغلق الباب الآن .

٣-   من أجل الشيطان

من أجل الشيطان ستبعثر قيمك وستفقد مبادئك
وستتلوى بين الخوف والمواجهة، سأتركك
تتمنى الموت

لم تكن تدرى علياء أنها سوف تأتى بكل تلـــك الأخطـــاء لترسم جذور حبها الأول فبالرغم مما سمعته عن جأش الحـــب وقرار الهوس والفن المذهل في الغناء عندما يلتحم الحـــب مـــع شريانها الصغير المستلقي على أعمدة التـــاجي وتحـــول كـــل المحطات إلى محطة واحدة من العذاب، وبالرغم من أنها متزوجة و لم تكن تعلم بذلك إلا من خلال تلك الورقة المتدليـــة مـــن خزانتها الصغيرة التي تحوى دوما الأشياء الغـــير مهمـــة علـــى الإطلاق، ولكنها دوما تحتفظ بها ولا تعلم سرا لذلك. إلا أنهـــا أصرت على تقبل المجازفة والانخراط في عبق الحب العتيـــق، لم تكترث منها هي الأولى فهي تعلم جيدا أن الحياة تحـــتفظ لهـــا بالكثير وكل ما عليها هي الإجابة (اعتقاد عليائي) .

يدق جرس الهاتف علنا بينما يطرق الباب في نفس اللحظة ، وقفت بحيرة لم تأخذ من تفكيرها الكثير بماذا تبدأ بالبـــاب أم بالهاتف ؟! ، ارتمت عيونها على تلك الأمطار التي تستنجد بهـــا

خارج نافذتها الساطعة السواد وذلك الغيوم الذي زاد السواد سوادا، وهناك على وقع الأمطار ذهبت إلى هناك.

" هل لي أن أسالك سؤالا من فضلك ؟ "

تعلوه تلك الابتسامة العريضة والملامح التي تنسبه إلى وطن آخر وحدود زمن آخر، وربما هو بالفعل إنسان آخر من وجهة نظر عينيها الشاردتين في سكون ابتسامته العجيبة.

أومأت برأسها بالموافقة دون كلام قد يعيق عليها التعمق في تلك الابتسامة ،انحنت في مقعدها للوراء بينما تقابلا كتفيها في محاولة إظهار عدم الاكتراث لتلك الملامح المطلة عليها، بينما كانت منذ لحظات هائمة على سفح إحدى الجبال في إحدى الأماكن التي لا تعرفها دوما والتي تذهب إليها باستمرار حيث يملأها اللهفة عندما تجلس في إحدى المقاهي الحميمة الهادئة ، دوما تحجز لنفسها مكان مع أول رحلة في خيالها المقدس والمعقد لصديقتها التي دائما ما تصفها بالمجنونة الهاذية ، فهي تعلم جيدا أن تلك الابتسامة المطلة عليها هي بالفعل كانت إحدى محطاتها التي استقرت بها لفترة طويلة ربما على إحدى الجبال أو في أحد أوكار العصابات على طرق المكسيك، أو ربما في السماء الغارقة في سحابات قاتمة وشمس قد انسحبت لعالم آخر لم تذهب إليه بعد، ربما .

" هل تعلمين أنك بحق أجمل من رأت عينيّ من النساء ؟ "

بدت غير مندهشة على الإطلاق ليس لعلمها أنها جميلة ، ليس لأنها تسمع تلك الكلمات من وقت لآخر حتى من الباعة الجائلين على الطرقات النائية ، لكن لعلمها الأكيد أنها سمعت تلك الكلمات من نفس الوجه الذي يحمل نفس الابتسامة في إحدى المحطات التي غادرت إليها يوما في عالمها الحقيقي، ولكن كل ما كانت تنتظره أن تأتي إليها الكلمات دون أن تغادر إليها بحثا أو عمدا ، دون الاحتياج أن تركب ذلك الخيال المقدس . فما أجمل أن تتحقق الأحلام بنفس الخطط المسبقة التخطيط، والأجمل أن تتحقق صدفة دون أي إشعار مسبق .

لم يمر الكثير إلا وجدت يديها في جوف يدين رجل ربما لا تعرفه، ولكنها طالما رسمته كثيرا بين خواطرها التي لا تقرأها حتى أعينها المفقودة في وسط عالم بدا عليه الانهيار الأول منذ الوهلة التي أطبقت فيها والدتها على صدرها لتخبرها كم هي سعيدة بقبولها ذلك الرجل الخاشع في تذلل في حجرة الضيوف طالبا يدها من أبيها الرجل الأرستقراطي الشديد الجفاف بلا مبررات ولكنها ربما طباع موروثة من عائلة تكاد تفتقر إلى كل أنواع الحياة ، فهناك تقبع لوحة الصحراء على الجدار الأيمن لغرفتها الشديدة الاتساع وهناك على الجانب الأخر تلك الصورة التي ترسم ليلة عرس لكل الحاضرين ولكن ليس لها ، فإنما أطلقت هي عليها لوحة التحرر ولكن لم تكن تعلم أنها

تحرر من اجل عالم أخر ضائع لا يحمل أي معاني للحياة المقدسة في يومياتها المختفية عن البشر الغائبة في سرب الضياع .

" لماذا دائما أجدك حزينة كلما تقابلنا ولماذا دوما تمتلئ عينيك بالدموع ، لا اعلم ماذا أفعل من أجل أن أرمى السعادة في جوف قلبك ؟"

قالها محتضنا عينيها بشدة بينما ظلت عيناها متصلبة على الأشجار العارية تاركة يديها في جمود قاحل وبمحاولة رقيقة قبل يديها وأردف قائلاً:

"فأنتِ تعلمين حقا أنني أحبك منذ الوهلة الأولى و لم ينتابني أي شعور آخر سوى أن أشهره في العلن ، نعم عينيكِ هي من أعطتني تلك القوة لأقتحم معبدك هنا وأن أحطم كل حواجز وحدتك ولأخبرك بحقيقة إحساسي تجاهك و لم أتصور... لم أتصور ... "

صمت للحظات محاولا أن يخفى تلك الحقيقة ثم غمغم قائلا:

" إنك متزوجة "

قالها وكأنه يخفيها عنه لعدم تقبله لها وحتى لا يثير حرائقها الرمادية في بئر الحياة الشديدة التعقيد من وجهة نظره والتي تخالف عقائدها العليائية شديدا.

" أنت تعلم جيدا أن طلاقي من زوجي هو بالشيء المستحيل .. فهو رجل ذو رأس حديدية وان زواجي له هو بمثابة إحدى المعارك التي انتصر فيها وتعلم أيضا أن كل الطرق للمحاولة للانفصال فقط هي بمثابة القضاء على حياتي وعلى كل أحلامي وأحلامك التي طالما ترويها لي هنا كلما تقابلنا "

تنهدت بينما تومئ برأسها ببطء شديد نحو الأرض محاولةً إخفاء الحقيقة المنبثقة من بئر عينيها الشاردتين في عالم ضائع وبصوت لا يكاد مسموع ثم أردفت قائلة بحزن :

" إنني أفضل الموت على ما أنا فيه من عذاب ما بين رجل لا أحبه ورجل أحبه وضمير لا يفارقني دافعا إياي إلى بئر من الجنون "

مر عام وتتكرر تلك الكلمات ما بين الوداع واللقاء ، ما بين الصيف والشتاء وما زالت مقابلاتها لا تنتهي ولا تعلم لمّ؟!، فهي تعلم جيدا أن قلبها مشرد على طرق من العذاب لا نهاية لها ، هل تختار أن تكون الأضحية وتعيش هكذا كفيلة بتلك الجدران مع ذلك الرجل الذي لا يأبه لها إلا عندما تعتريه شهوات الحيوانات فيطارحها الفراش وربما رغما عنها في بعض الأوقات إن لم يكن في كل الأوقات أم تترك نفسها لشهوات أفكارها وجنون بحثها عن حب دافئ غافية على أسرّة من

الحرام الذي يتجدد مع كل لقاء يجمعها مع ماهر ؟؟!، الماهر في الحب وتلوين الأفكار السوداء ولعب دور العاشق الأفلاطـــوني فهي لا تعلم حقا أي طريق تسلك ؟!، بئر الشيطان الصغير مع رجل لا تشعره رغم محاولاتها المستميتة في محاولة إحياء حيـــاة لأجلها قبل كل شيء أم بئر الشيطان الكبير الـــذي يطـــارح أفكارها وحبها الحالم الغرام في كل ميعاد يجمعهما ؟! .

في تلك الليلة سارت علياء كما الخطة الموضوعة لها لتـــصل إلى ذلك الطريق الذي يؤدى إلى مسكن ماهر وقـــد ارتـــديت ذلك اللون الأسود فقد قررت أن تسلم نفـــسها إلى أنيـــاب الشيطان الكبير .

غمغمت في ثقة ورضاء تام قائلة :

" خير لي أن أعيش ،، وتبا لتلك الدمية .. فمنـــذ تلـــك اللحظة سأمارس الحياة كما يجب أن تكون "

هناك على درجات السلم تحصى خطواتها ، مع كل ســـلمه ترتمي أنفاسها بحرارة في وجه الهواء المطل على وجهها الشاحب الممتلئ بالرعشة الجنونية للخوف والتردد وتلك العلامتان الـــتي ظهرتا بجانب فمها أعطياها عمر فوق عمرها الذي لا يكاد أن يبلغ الثامنة والعشرين بينما ظل صدرها في ارتفاع وانخفـــاض ملحوظ وكأنما تصعد أنفاسها الأخيرة دون رحمة من القـــدر ثم

توقفت ممسكة بأخر حبل من القوة وتسمرت قدماها التي تتدلى منها رائحة الخوف فهي على بعد خطوات مــن الــسقوط في الهاوية

ثم حدثت نفسها في امتعاض قائلة :

"تبا لذلك الضمير وتبا لكل تلك الاعتقادات وتبا للحيــاة التي تقتلعني ألف مرة من نفسي دون هوادة وتبا لذلك الحــب الذي سينال مني كل شيء "

سكنت للحظات محاولة التثبت بأخر أنفاسها ثم نظرت إلى الأرض في سكون وبوجه يملأه الألم والحاجة قالت :

" لكنني احتاج للحب وها هو هناك ينتظرني كما انتظرتــه لسنوات "

وهنا جال في خاطرها ليلة عرسها مع ذلك الإنسان الــتي تمنته إنسان، وتلك الوعود العنبرية،ثم إلى تلك الفترة مــا قبــل الزواج هرولت مسرعة وهناك رأت ابتسامته وكلامــه الميــال إليها والأحلام الوردية بحياة زوجية قد تكون دربا من الأساطير المعقدة على العقل الآدمي ، تلك الورود التي تزين غرفتها مــع كل فجر وإنها الآن سوف تتحرر من عالمها العنفواني المجهــول مع أب لا يعرف للنقاش طريق ونظرته للحياة ما هي إلا أعمال ومعتقدات موروثة منذ ألف عام ، وعليها أن تقبل الإرث بأي حال من اجل أجيال قادمة على عاتقها .

تحركت قدماها في مبادرة ليست منها وأطرقت البــاب ، أطرقته ومع كل طرقه في كل ليلة تذهب فيها كانت تبيع شيئا منها ، تتغنى بالحب وتغوص أكثر في عالم الرذيلة المنحدرة باسم الحب الأعمى والاحتياج المبرر ، رسم الشيطان خططه في قلبها بكل إحكام حتى أنها لا تدرى في بعض الأوقات لمن الحق فيها، زوجا لا يأبه أم عاشقا يعطيها ما تحتاج بالفعل باسم الشيطان؟

لكم كانت الحياة معقدة إلى أبعد الحدود ولكم كان الحكم سهلا لمن لا يأبه سوى برسم بعض الكلمات لاعتلاء منــصة نقاش ما هكذا ذكرت لها إحدى صديقاتها عندما أخبرتها هـــي عن قصتها ولكنها لم تذكر بالفعل أنها هي بطلة تلك الرواية .

الجو تملأه الغيوم وتسير اندفاعات ليلية في وقـــع مـــسامعها كصرير مياه خافت وتزلزل عواصف السماء الجدران وتعلـــو دقات الساعة في صوت مريب يكاد يصفع هدوءها الـــصامت ذو الطابع الحاد الملامح ، تكاد أن تصرخ داخلها كل الأفكار وتلك المشادة داخل عقلها التي تذكّرها بمناقشة أولية مع زوجها عن ماهية مشاعرها وكيف أنها تشعر بالوحدة رغم تواجـــده دائما جوارها وكيف أنها دائما تشعر بوحدة يتوجها الـــصمت ببركان أعمى يقذف كل نفاياته في قلبها الصغير المتهدم ، تدق الساعة عالية ويحتدم النقاش حد أن الصوت بدا يعلو صـــوت الرعد في السماء وعيناه التي امتلأتا بالغضب قد يكون الـــشر الخارج منهما بمثابة برق أخر يزين النوافذ أكثر مما هو قادم من سماء أصابها نوبات إغماء شتوية .

تتذكّر صرخاها ومعها الكلمة الأخـيرة كفـي وتغطيهـا الدموع في ركن حجرها المتدلية من مدينتها الخرساء الملامـح الواهنة بلا جدال في يد حاكم لا يعرف ملامح الرحمة.

تتذكر تلك الليلة وهى زاحفة إلى مقرها الشيطاني للارتواء برشفات من الحب الزائف في قلبها المتعطش إلى حياة مـستقرة وما يحزنها بشدة أن ماهر لا يهمه على الإطلاق ما تمر به مـن أزمات تقتلع قلبها من أحشاء جسدها وتلك الصرخات الـتي تزورها كل ليلة في أوج وحدها والكوابيس التي تهرع دائما إلى منامها فهي قد تربت على الأخلاق والدين والكرامة والشرف وكل تلك المعتقدات التي أطاحت بها جانبا لمجرد انتهاك حرمة الحب المقدس في معبدها العتيق . تتذكر جيدا نظرات كل من يرمقها وهى على طريقها نحو وكر الشيطان ، وتلك النظرات التي تكاد تشعر أنها تعلم بكل شيء... بكل شـيء . فهـي تشعر أن الكل ينظر لها نظرة يملأها الغضب والاحتقار ، فكـم هي قاتلة تلك الأعين الجوفاء.

بالطبع تحمل مفتاح الآن ، فقد أصـبحت سـيدة مـترل الشيطان وهناك على اليمين تطل لوحة كـبيرة لمـرآة عاريـة تشبهها كثيرا وعلى الجانب الآخر يطل مدفأة لم تشعر بـدفئها يوما رغم كبرها ، بينما تلك الطرقة الطويلـة الـتي تأخـذها بأرجل مثقلة دوما إلى بئر الشيطان . تمهلت قدميها في فتـور وخطوات أشبه بمن قذفته سيارة فأصيب بالعجز . ومع كـل خطوة تتذكر خطوها الأولى نحو عرسها الحالم وتلك الأفـراح

والابتسامات ، مع الخطوة الثانية تلك الصرخات الوحيـــدة في عالمها القاحل ، مع الخطوة الثالثة تلك الحادثة التي قرأت عنها عن إحدى الفتيات التي تم نشر صورها بالجريدة ممزقـــة إربـــاً نتيجة خيانة زوجها ، ومع خطوة أخرى كلمات أبيهـــا عـــن الشرف وانه الشيء الأسمى في الوجود ، بدأت الحرب تـــدور برأسها الصغير وتتدافع في قلبها الذكريات مـــا بـــين الـــصبا والشباب وما بعد الزواج ، ومع تلك الخطوة تتذكر وهي تتألم تحت جسد الشيطان فتلك ليست فعلتها ، إنمـــا هـــو الحـــب الأحمق. وأخيرا إنها الغرفة فاستندت إلى الباب بـــسرعة امـــرأة اقتربت أن تتهاوى . وهناك أطلقت صرخة صامتة

صرخة صامتة ،،، صرخة أعين جاحظة . وشعر قد شـــاب في عقده الثالث من هول مفاجأة لم تكن في الحسبان ، فهنـــاك أخرى تتلوى كحية على فراش ماهر الماهر في كل شيء ولكنه بارع في اقتناص النساء وتبديد كل شيء وشراء كل الأخلاق وبيعها في أزهد الأسواق .

وقفت وقد شحبت ملامحها وقد أطبقت يديها على فمهـــا وحاولت أن تلثم عينيها ولكن كيف فقـــد شُـــلت الأيـــدي للحظات وتوقفت القدمان بلا أدنى تردد بينما نظرت إلى ذلك النائم هناك الذي بدوره لم يظهر أي نـــوع مـــن الدهـــشة أو المفاجأة فيبدو انه معتاد الأمر بلا جدال وكأنه الدور التمثيلـــي الذي يقوم به كل ليلة على إحدى المسارح الليلية وقد برع في أداء دوره براعة تامة .

سقطت منها حقيبتها الصغيرة الشاهدة علـــى مـــصيرها ، والتفتت إلى الطرقة سريعا وقد أصابها الدوار تتخبط في الجدار الأيمن فيصرعها فتذهب سريعا إلى الجدار الأيسر الذي لا يقبلها بدوره فيقذفها مرة أخرى إلى يمناه فخرجت من المعركة منهكة وعند الباب تعثرت قدماها فسقطت والدهشة مازالت تنهشها، نعم ذهب الحلم الأفلاطوني فلم تكن سوى فتاة قامت بالـــدور لبعض من الوقت وقد شعر الجمهور بالـــضيق منـــها وطلبـــوا أخرى، نعم ضاعت كل الممتلكات الروحية فلم يعـــد هنـــاك شيء ، أنفاسها تلهث دون جدوى ، تحاول أن تلحق بقطـــار نفسها الأخير ، وتنهض بشدة لتدرك الباب لتذهب من هنـــا تذهب بعيدا ثم رددت بضعف ونبرة صوت دامعة :

" لا حب ، لا أحلام ، لقد ضعت بالفعل ، فمـــن اجـــل الشيطان بعت كل شيء حياتي ومبادئي ، من اجل الـــشيطان فقدت نفسي ، من أجل الشيطان انسحب كل شيء مني "

مازال الهاتف يدق بصرخة والباب يكـــاد أن يُقتلـــع مـــن جداره، يا ترى هل هو العقاب متوسلا على الباب ؟! ، هـــل الهاتف يحمل خبر إعدامي ؟ ، صرعت عيناها وتجمدت أرجلها ولكنها جلست في مكانها وجثـــت أرجلـــها نحـــو صـــدرها واحتضنت نفسها في خوف مريب وعيون قـــد أوشـــكت أن تُقتلع من وجهها الذي يفوقها عمرا بخمسين ألف سنه أخرى ، وظلت ترتجف خوفا، وظلت هكذا بعد أن قـــررت ألا تفـــتح باب ولا ترد هاتف .

٤- عائدة من الموت

العودة من الموت شيء صعب جدا ، أليس كذلك ؟

(١)

ذكرت له أنها لن تعد قبل انقضاء إجازتها التي انتظرتها منذ زمن طويل.

هل كان يعلم السيد فواز أنه سيشتاق لها بتلك الطريقة ، أم هناك شيئا ما أراد الإفصاح عنه لكن شيئا ما منعه .

سيد فواز ذلك الرجـــل ذو اللحيـــة الطويلـــة والعينـــان الجاحظتان التي تحاولا الهروب دائما من شيء ما خلف ذلـــك الستار الزجاجي الذي لا يفارق وجهه شديد الميل دائمـــا إلى الاصفرار .

وفي عمق تفكيره وهو ما زال يمسك بالهاتف بقبضته القوية

"سيد فواز لقد بحثت عنك كثيرا "....

قالها إبراهيم أحد تلامذة السيد فواز، وقد بدا علي وجهه الجميل ذلك الاقتضاب والعيون الحزينة وخـــبر ربمـــا يطـــيح بسكون السيد فواز

"ماذا بك يا إبراهيم ؟؟؟؟ .. التقط 'أنفاسك ثم تكلم .. "

"لا وقت سيد فواز اتبعني بالله عليك سأخبرك بكل شــيء لكن أسرع فلا وقت لدينا "

القدمان مثقلتان جدا ، والسيد فواز يشعر بــشيء لــيس بالجيد يدور في مكان ما ، صوت السيارات وسرعة إبــراهيم الفائقة في مرور الطريق وذلك السؤال الذي أبى الإفصاح عــن ما يدور في نفس السيد فواز.

لم يحاول السيد فواز السؤال ثانية ... هل بالفعل يعلم مــا يدور في مكان ما؟! ... هل إحساسه منذ الصباح مع مــرارة فنجان القهوة الخالي من السكر هو ما أعطاه ذلك الانطباع ؟!، أم أنه الخوف من إجابة ما ؟!...

قاطع أفكاره صوت إبراهيم الحزين وصلنا سيدي ....

يبدو أن ما يدور داخل سيد فواز يتحقق ببطــيء شــديد، ويبدو أن الفنجان لم يكذب ...

(٢)

" هل تعتقدين أنها ستنجو ؟؟؟؟ "

" لا أعلم فحالتها سيئة للغاية !!! "

" إذاً أسرعي فقد تم تحضير كل شيء وسيقوم بالإشـــراف ثلاثة من أفضل الأطباء لدينا ... "

إحداهن على أحد الأسرة ملقاة .. ومن حولها الكثيرون مما يرتدون الأبيض وكأنهم ملائكة تقوم بتحضير إحدى الراحلون للرحلة الأخيرة .

ولكن لما السرعة .. فالرحلة ستقوم حتما في الميعاد .. مـــن منا يستطيع التأخير ؟!!!!!

وجهها الأصفر يدل أنها فقدت كمية كبيرة مـــن الـــدماء وعيناها الزرقاوان وشعرها المائل إلى لون الشمس عند المغيب.. يبدو أنها امرأة شديدة الجمال ولكن ما حل بها كان مروعـــا للغاية .

" نبضات القلب غير منتظمة ... "

" سارة .. احقنيها بمادة الأندرولين .."

" حالا دكتور "

" جهاد ... هل كل شيء جاهز .."

" نحن جاهزون يا دكتور "

لكن هل السيدة الجميلة جاهزة لنوع آخر من العـــذاب ؟! فما أكثر الأنامل الحادة التي ستجوب في جـــسدها الـــشاحب الضعيف.

صوت الأقدام يدق كطبول حرب أعلنت عن غضبها.

وصرخة أخيرة ..

" افتح غرفة العمليات بسرعة "

(٣)

السيد فواز لا يعلم ماذا يجرى

أسرع يا سيد فواز بالله عليك فلا وقت لدينا .

يأمر السيد فواز قدميه بالإسراع ولكن ما أبطأهما

إبراهيم بنوع من اللهفة قائلا :

" أخبريني سيدتي أي غرفة عمليات تكمن فيهـــا الـــسيدة الإنجليزية "

نظرت بسرعة إلى إحدى الأوراق التي تطل خلسة في خوف على عينيها خلف بعض أوراق أخرى أصابها الجمود ثم قالت :

" غرفة عمليات رقم (٧) "

وعند إعطاء ظهره إليها ليخبر السيد فواز المستميت بقـــوة لمحاولة مجاراة قدميه فتقول الممرضة بتوتر

" أنها بالداخل منذ حوالي النصف ساعة تقريبا "

التفت إبراهيم إليها في نظرة حزينة كأنه يطلب منها الدعاء لتلك السيدة المجهولة لها ولكن فاجأته تلك اليد على كتفه .

" الآن أخبرني ماذا هنالك يا إبراهيم .؟! "

" لا تتركني هكذا !!! "

يومأ برأسه إلى الأرض في أسى قائلا بصوت متقطع :

" سيد فواز لا أعلم ماذا أقول ؟؟!! حقا لكن .. لكن ... "

ينظر إليه السيد فواز محاولا النظر إلي عيونه قائلا بتوتر شديد :

لكن ماذا يا إبراهيم .. لا تطيل انتظاري بالله عليك أخبرني"

وبسرعة عفوية قال :

" إن السيدة لويزا في حالة حرجة فقد اصطدمت سيارتها بإحدى السيارات على الطريق الزراعي ... وقد أخبرني احد أصدقائي الأطباء بذلك "

اختفى صوت إبراهيم من آذان سيد فواز فقد ذهب سريعا إلى المكالمة الأخيرة ثم حدث نفسه قائلا:

" لقد كانت هناك تحدثني وكلها حيوية... نعم كانت تقص لي مدى فرحتها بتلك الإجازة التي حلمت بها منذ وقت طويل .. كيف ؟! لقد كانت منذ حوالي الساعة تحدثني على الهاتف لقد كانت تحدثني على الهاتف ..... لقد كانت تحدثني على الهاتف "

(٤)

" أعطني المشرط يا جهاد "

" هل أنت متأكد يا دكتور محمد ؟! "

ذلك السكون والنظرات المتسائلة من خلف الأقنعة البيضاء

" دكتور محمد .. دكتور محمد .. دكتور "

يا ترى بماذا يفكر دكتور محمد ؟! فهو يعلم جيدا ما معـــنى الروح ويعلم أيضا أن النائمة أمامه والتي ربما ستوقع أخر ورقة في عالم الأحياء ستوقعها على يديه إن لم يأخذ القرار الصحيح.

وهنا استفاق دكتور محمد على صوت جهاد الذي كاد أن يملأ المكان بنوع من الفوضوية ثم قال :

" نعم أنا متأكد ... دعونا نقوم بالعمل الصائب الآن "

(٥)

في وجه السماء ومن خلف تلك النافذة يطل السيد فواز في سكون تام ، ووجه لا يحمل أي نوع من التعبيرات ، ويداه ضائعتان في جوف صدره يشبكهما وكأنه يحتضن أنفاسه التي توشك على الانتهاء من قهر الانتظار .

" لا تقلق سيد فواز .. إن شاء الله ستنجو "

قالها إبراهيم والدمع يجرى في خط نهرى حفر مجراه في صحراء وجه من فطرة القلق والانتظار.

أومأ السيد فواز برأسه وعاد مرة أخرى إلى السماء فهو يعلم جيدا أن لا ملجأ من قضاء الله .

وفجأة تختفي السماء خلف سواد سحابات قادمة لتشارك السيد فواز الخوف وتزيد الخوف خوف والإعياء إعياء ثم همس لنفسه قائلا :

" هل ستكون اللحظات الأخيرة حقا ؟! هل ستكون آخر الذكريات مجرد مكالمة هاتف ؟! فإنها القوة التي تحملها أجزائي"

تبسمت ملامحه في لوحة غريبة عندما تذكر كلماتها الفولاذية عن الحياة، الحب، العلم، الثقافة، الملل، والسفر إلى إحدى الدول الغربية وكلماتها الرقيقة عن سر القهوة في الصباح، يتذكر تلك الضمة عند إحساسه بالوجع وتلك الأيدي الماسية التي تتلفظ بكل الكلمات الرومانسية .

تنهيدة ثورية تحمل ألف معنى مؤلم تخرج عازفة مع هطـــول الأمطار، وكأنها تراتيل وداع لشيء ما وربما كـــل الأشـــياء، تعانق الأمطار عينيه خلف النافذة وتتبقى أنفاسه تجهر بكلمات غير مفهومة وتحاول يديه معانقة صدره أكثر؛ محاولة أن تهـــدئ من روع دقات قلبه الصريع .

(٦)

" دكتور إننا نفقدها "

" جهاد صدمات كهربية بسرعة "

" واحد ... اثنان... ثلاثة "

يتطاير صدرها النحيل إلى الأعلى بقوة ، وتعود كما كانت بل أكثر شحوبا وتشير الأجهزة أنه لا فائدة .

" أعيدوا الكرة "

" واحد ... اثنان ... ثلاثة "

وهنا مع الثانية يتطاير جسدها لأعلى كمبارز في مقاومة مع الموت ولكن هيهات يعود في استقرار كما كان بلا فائدة .

" الأخيرة الآن "

" واحد .. اثنان .. ثلاثة "

" الآن "

يعم الصمت المكان .. وتتلاقى الأعين وتفقد الحياة جوهرها في لحظات مع أنين الجهاز الذي يعلن أن النبضات القلبية أعلنت الاستقالة .

(٧)

تلك الحجرة التي تعمها فوضى الورود في كل مكان، ومعها يتطاير نوع غريب من الإرهاق والتعب الناتج عن معاناة الجدران لتقبل ألم ما ،وتلك النائمة في ثبات عميق مع وجهها المرسوم باللون البرتقالي كوردة ربيعية في ربيعها الأول، وهناك عند تلك النافذة شمس صباحية تطل بابتسامة تحملها نسائم الشرق

وعلى ذلك الكرسي المتأرجح بجانب السرير، ذلك الرجل الذي امتلأت ملامحه بالإعياء والراحة في نفس الوقت

" حمدا لله على سلامتك يا لويزا "

تنظر بابتسامة تكاد تخترق جدران قلبه ثم يحدث نفسه ناظرا إلى عينيها :

" نعم يا لويزا أنت الحياة ، القوة والروح التي تمدني كل يوم بشمس جديدة يأتي مولدها مع استيقاظ عيناكِ .. نعم يا لويزا أنت النهار الذي يصب في مداخل قلبي .

فلا تفعليها ثانية .. فأنت من أجلى عائدة من الموت "

٥- الانتظار ما بين الموت والحياة

الانتظار دوما مبهم وليس تفاصيل أو طقوس معينة ولكن هنا الانتظار موت أو حياة يا تُرى ماذا ستكون الإجابة ؟

ارتطم برأسه ذلك الضجيج القادم مع إعــلان الــسيارات المرور بهدف أن تُوقف مسيرته القديمة من أرض جاء منــها في نفس الوقت الذي لفت انتباهه أنه ليس نفس الشخص الــذي مر هنا منذ أمس ، فكل شيء كما هو وربما نفس الــسيارات التي لم تمنعه من المرور بالأمس هي نفسها التي تمنعه اليوم فهــو يعلم جيدا أنه ليس هو ولكن ذلك الضجيج الــذي يلــوح في جمجمته الصغيرة كانحصار جيش قديم خلف أسوار منيعــة في زمن القدماء، وذلك الشعور أنه ربما لم يمر من هنا يوما هو ما استوقفه مدعيا أنها السيارات التي حالت بينــه وبــين الــضفة الأخرى ، لكن ذلك الضجيج يحول بينه وبين نسمات الــضفة الأخرى ، امتدت رئتيه في ضيق محاولة الانفتاح للهواء المنبعث من الضفة المطلة على الشاطئ الآخر من نفسه القابعة في محاولة مرور المستحيل ، قدماه التي انزلقتا ليرسما له لوحة محارب على وشك بداية حرب مع الذين جاءوا لاغتصاب أرضه الخضراء،

وأن الوقت آن إما للموت أو للعبور والتحرير . فوقفته تلك تذكره بليلى صديقته التي أصرت ملايين المرات أن العالم ليس له وجود ولكنه دائما ما كان يصرخ بثبات واضح كامرأة في منتصف العمر،بالرغم من أنه كان يوافقها تماما في أن العالم ليس له وجود ربما في تلك اللحظة التي تحشرجت فيها ذكرياته على ضفاف الطريق ، هي تلك الصرخة التي أطلقها بالمعارضة بالرغم من الموافقة ، و فجأة أحس بذلك البركان القادم عبر رئتيه الذي صرع أفكاره عن ليلاه والعالم المختفي في حدود لا يعلمها هو ولا ليلى، تلك التنهيدة التي أوشكت التي تقتلع رئتيه معاودا النظر إلى السيارات التي بدت له أنها تلف في دائرة صغيرة جدا، حتى أنها تعود في سرعة فائقة لتمنعه من العبور .
ثم سمع تلك الكلمات التي قذفها أحدهم يوما عندما احتسى كوبا من الشاي على المقهى الذي مر به يوم أن كان تائها في إحدى المدن التي لم يعتد زيارتها ، فهو دائما ما يحاول أن يضيع على طرق في زمن مفقود وربما يبحث عن الزمن المفقود نفسه، كم كان الشاي ذو رائحة خلابة كتلك القادمة مع نسمات البحر الصباحية في شتاء يحمل السفن القادمة مع الغرباء الذين قرروا أن يتخذوا ذلك الميناء هبوطا لكل الأحلام وربما هروبا من كل الأحلام ، عاد مرة أخرى مع ذلك الشاي الذي أشعره أنه من نوع فريد ولا ينتمي إلى تلك المدينة، وما أكد له ذلك

أن من قدم الشاي يتحدث بلغة لا يعرفها أهل المدينة الضائعة ولكنه دائما لا يقدم سوى ذلك الشاي الغريب في المدينة الضائعة فيها قدماه ، ومع إحدى رشفات الشاي نظر بجواره ليجد ذلك الرجل الذي بدا له كتمثال من زمن الرومان ، وبمرارة ليست كتلك التي تحدثت بها أمه له عن مرارة افتقاد أحدهم قال :

" تبا لتلك السيارات التي تمنعني من العبور للضفة الأخرى "

تحرك التمثال بسكون مبالغ فيه بعد أن عادت إليه الحياة ليستطلع من ذلك الزائر الذي قام بشراء إحدى التذاكر ليقوم بفحصه، وربما بنشر مقال ما عنه في إحدى الجرائد التي لا يقرأها أحد وربما لا يقرأها سوى المجانين بالماضي البعيد ، ثم رفع حاجبه الأيمن وامتلأت عيناه بنوع من السخرية كأنه يشاهد أحد المهرجين الذي يحاول أن يستولى على انتباه أحدهم ، و بلغة صامتة للغاية لا يفهمها سواه قال :

" العبور إلى الضفة الأخرى سيأتي ، كل ما عليك هو التمهل حتى يأتي الميعاد "

" الميعاد .. الميعاد ... الميعاد " .

رددها كثيرا كأنه يحفظها آملا ألا ينساها إذا طال به الانتظار واستجاب لملائكة أفكاره وحاول تهدءة ثورة بركان

رئتيه التي اتخذتا وضع الاستعداد بالانفجار إن لم يأت الميعـــاد الآن .

ثم بحذر جارف وكان صخرة كبيرة ستهوى علـــى رأســـه الذي دائما ما ينبع منه ذلك الرجل الكبير ذو الملامح الموحشة، ولكنه ليس كذلك الشيخ الكبير الذي يقابله كل يـــوم عنـــد مقابلته بالمرآة التي تقبع بدورها على إحدى الأبواب في منزلـــه الذي تناساه في طي الانتظار قال :

" ولكن متى الميعاد؟؟ "

قالها في حنق شديد وملامح تلك المرآة التي تحمل الـــشيخ الكبير

تحول التمثال إلى حالته الأولى ،ولكنه في تلك اللحظة بـــدا أكثر حياة، وكأنه سيتحول إلى آدمي يحمل معنى آخـــر مـــن معاني الحياة التي ربما يبحث عنها ، والتي ربما تكمن على الضفة الأخرى من الطريق المكتظ بالسيارات، وبقى السؤال في حالة عدم تنفس حتى أنه في حد ذاته استسلم لينطـــوي في حالتـــه الأولية، وانضم إلى فئة أسئلة بلا إجابات.

هنا ترك نفسه إلى حالته بذلك السؤال ، وشرع في التقـــاط أنفاسه، بينما هبت رئتيه بالترحيب بالهواء القادم من أثر سرعة تلك السيارات التي تتهجم وتبدى الرفض التام للعبور ، وعلى صوت شياطين أفكاره انساب الهواء الغامض ينهر في مصداقية

الانتظار، ومتى سينتهي ولماذا الانتظار؟ فبقدرتك أن تمر عبر تلك السيارات بإيماءات اعتراض على عدم التوقف المتغطرس منها ، حاولت الشياطين أن تستولي على أفكاره، ثم استطردته ملائكة الحياة القابعة في جمجمته الصغيرة على الطريق المكتظ بالسيارات والهواء والأفكار والانتظار الذي سيدوم إلى أجل لا يعلمه ، فهو يعلم جيدا أن انتصار الشياطين ربما يكون بمثابة موت أو انتصار في رحلة المرور عبر تلك السيارات ، ولكن الموت نفسه يحتضر على أعتاب الانتظار المتلفع بأحبال السيارات وذلك التمثال المستلقي على نفس الضفة من نفس العالم البائس ، وتلك الشياطين التي تحاول التلاعب بالقدر في صورة الموت أو الانتصار، عازفين ترانيم الشهادة أو الانتصار ولكن لا للانتظار.. استطاعت إحدى قدماه أن تخطو خطوة للأمام لتترك ذلك النقش التعبيري على جدران الأرض الذي حملته لفترة من الزمن، وستذكره يوما أنه انتظر هنا لمسافات من الزمن كتلك المسافات التي قطعها عدوا بعيدا عن تلك التي ضاجعها في شتاء مضى ، واشتهرت فضيحته ولكنه كان يعلم أنها كانت أعظم لحظات سعادته ،و في ذلك الوقت لم ينتظر النقاش بين ملائكة أفكاره وشياطين أفعاله ولكنه امتثل بحدود اللاوعي لنداء شيطان نفسه الذي طالما أصر على موافقته في الليالي الباردة

ارتسمت تلك الابتسامة على شفتيه في وجه الضفة الأخرى بينما ظل التمثال صامتا دون حراك، وأخذت ملامحه تصبح

بغضب شديد في وجه السيارات التي تمر عنوة فمهمتها الوحيدة التي بدت له هي منعه تماما من العبور ، وقفت قدمه تنتظر الأخرى أن تأتي فتساندها في تلك المعركة، ولكن دون حراك ظلت تلهو وحيدة في امتداد أرضي مقفر وقد أصابها الخوف ، خوف أكبر من ذلك الخوف عندما أخبروه بنهاية مؤانسته للشخص الذي تعرف عليه لمدة سبعة أيام وتعلم منه كيف يكون الحب وكيف تكمن الحياة في كلمة، وكيف تنقلب كل أبيات السعادة من وقع دمعة دامية ، نعم ذكرته قدمه بالخوف في تلك المعركة التي لا تتحمل أي نوع من الخوف فإما الحياة أو لا شيء ، لا شيء غير الحياة فهو ليس كالآخرين ينتظر الموت في أي لحظة بل إن الموت هو من ينتظره على وقع ليس ببعيد كذلك القادم من بلاد العجائب منغمسا في ذكرياته التي تحمل أيام ما قبل الرحيل، وهنا ردد لنفسه تلك الكلمات التي خرجت بنوع من السهو ، فقد غافلت تلك الكلمات خوفه وخرجت دون أدنى وعي من جهازه الطنان الذي يسكن في الدار العليا لجسده الهزيل، ولم تمنعها حراس عقله من الهروب إلى آلية العالم المنبعث على ضفتين ، ضفة الصراع ما بين خوف الملائكة الشياطين والتمثال القابع بذلك النوع من الفن الفلكورى العتيق ، وتلك الضفة الأخرى التي تحمل ربما أحلام ضائعة في طيات العالم المنسي المجهول ، ربما هناك تكمن الحياة

دون تمثال دون شياطين دون هواجس أو مخاوف ، هناك ربمــا تقبع الحرية ولن تفر يوما الأفكار الجنونية كما تفر كلماته التي صعدت إلى أعالي أذنيه محدثة :

" الخوف هو ذلك الكائن الذي يغتال الحرية في سكون "

وهنا استدرجته ملائكة أفكاره؛ لتعلن بقوة لم يعتد عليها ، وبصرخة ليست كتلك التي أطلقتها حبيبته الأولى عندما أخبرها بسفره بعيدا دونها ، فقد كانت تعلم جيدا أنه يومــا ســيغادر هنا، ولن يترك أي أثر سوى تلك الكلمات المتجسدة التي تخرج ممن اقتحموا حياته ، لن تسمع عنه سوى تلك الأحــلام الــتي ينشدها البعض أو ربما يهذي بها في ليالي البرد على النهر ولــن يتبق منه سوى الوردة التي أهداها إليها حافي القدمين في عيد لم يجي ذكراه سواه، ولكنه شاركها في إحيائه في ذلك العام ربمــا لأنه افتقد أن يجيي شيئا ما من الموت ، وربما لأنه طالما انتظر من يشاركه أي شيء ، فقد كان يتمنى دائما ابتسامتها المعلقــة في وهن على شرائح ملامحها السمراء، التي تبدو كوميض في ليـــل حالك السواد .

ابتسم مرة أخرى ولكن لملائكة أفكاره التي تمنعه بوهن من المجازفة ، فلكل مجازفة مخاطرها العظمى وهنا ردد هــو ، دون أدنى شك أنه في تلك اللحظة هو من ردد في الصمت المندهش الذي استولى عليه قائلا:

" يا لها من أعجوبة أن نتحدى الواقع بجنون ".

" يا لها من أعجوبة أن نتحدى الواقع بجنون " .

ومع كلمة الجنون تختفي السيارات وتقبع بعيدا عن آخـــر ممرات عيونه ، وهنا تأخذ قدميه تلك الجرعة الزائدة من التحرر وتطلق العنان لرياح أنفاسه الصاعدة في عبق الهواء الذي قتلـــه الانتظار، واختنق من حدة ألفاظ عيون المنتظرين ، ما أدهـــشه حقا هي سرعة تلك الأقدام التي تنسج بسرعة أخرى نوعا من الغبار المتصاعد من قوة وقع الخطوات المتضاربة ، ولكن ليست متضاربة بنفس طريقته في المضاربة في حانات السكارى للفوز بإحدى العاريات التي تستعرض بمقـــت مزاياهـــا الأنثويـــة أو مضاربته من أجل الفوز بمال لا يكفي لابتياع إحدى أحلامـــه الفقيرة الخرساء .

ذهبت عيونه بعيدا ليرى السيارات مرة أخرى تأتي بسرعة ليست كالأولى ، ولكنها تبدو أشد غضبا ، فهناك من أفقـــدها وعيها وهرع على طرقاهَا ليترل بها الهزيمة، ولتكن سجلا أسود في حياها العملية ولن تمكّنها ربما من الاستمرار في تلك الوظيفة التي لا تقتضي سوى المنع ، التفت إلى الناحية الأخرى لـــيس تجاهلا للسيارات ولكن ليطمئن قلبه إنه إن تم منعه سيجد مـــن يؤانسه الانتظار، ولن يمانع إن كان أحد التماثيل ، ولكن يبدو أن التمثال نفسه قد عادت إليه الحياة كاملة في دأب تام ودون توقف ، وقد سبقه ببضع خطوات قد تمكنه مـــن المـــرور إلى

الضفة الأخرى : صاحت الخطوات في قدميه علــه يتحــرك بسرعة أكثر، ولكنه لا يعلم لِمَ تلك اللامبالاة في العبور بالرغم من الانتظار الطويل؟! ، فهو يتباطأ عن عمــد ، ربمــا طــول الانتظار هو من سبب تلك اللامبالاة في العدو إلى هناك ، ربما السكون الغامض خلف الضفة الأخرى هو ما يمنعــه ، ربمــا اكتفى بالانتظار وكل ما عليه هو أن يمر في فتور حتى لا تبدو أنها مسألة شخصية مع نفسه ولتبدو حادثة موته هي بالفعــل ليست فعلته .

امتزج ذلك النسيم العابر مع خصلات شعره التي أصــابها الندى الذي لا يعرف له سبب ، فإنه الليل بجمــوده وتلــك الكشافات الخافتة القادمة من بعيد مع غضب السيارات الــتي تبيح لنفسها رؤية ضحاياها على الطرق الممنوعــة المــرور ، وهناك مع الندى والنسيم عاد مع شتاء مر منذ زمــن، هنــاك تستلقي أحد شخصياته خلف غطاء زجاجي لإحدى الأماكن الحميمة النصف نظيفة والنصف متسخة والتي طالما أخذته مــن وحدته المميتة وتعلم منها أشياء قد لا يذكرها في يومياته البالية التي طالما يحملها في حقيبته التي بدت كتوأمه أينمــا ذهــب ، توأمه الروحي الذي ربما يذكره بأشياء ربما هــو لا يتــذكرها بالفعل ، وغالبا ما يستعين بها لاستعادة جزء مفقود من ذكرى مضت كتلك مع صاحبة العيون الزرقاء التي قابلها في إحــدى المدن التي مر بها ، ولكنه يتذكر جيدا الآن كيف ابتسمت لــه كصباح أصيل جاء من بعد ليل مرير جاف تمــلأه الــصيفية

بعرقها وجفائها المبهم الغريب ، تذكر تلك الكلمـــات الـــتي تحملها مع حلية الصباح ونورها الفواح عند رؤيتـــها الطيـــور مغردة آتية من اللا حدود، وتذكر عينيها التي تسأل دوما مـــا اسم تلك الطيور ؟، ولكنه دائما ما كان يعاود الابتسامة لجهله التام بها ، ولكنها كانت تكتفي بابتسامته كل صباح كإجابـــة مقنعة وربما إلحاحها يوميا بالسؤال المجهول الإجابة هي مـــدى حبها لتلك الابتسامة المبهمة التعبير والنقوش .. أغمض عينيـــه ليعاود رسم تلك السماء من جديد تحتضن تلك الطيور القديمة محاولا أيضا رسمها في عيونها الزرقاء الجميلة، راوده الشعور بأن الطريق قد افترق وأنها مجرد لحظات وسينتهي كل شيء عـــبر وضوح أحد الأضواء على الطريق ، وقتها ستـــسقط حقيبتـــه وستسقط معها كل الذكريات، سيسقط الماضي في خـــشوع لتهتز أعضائه متهاوية على الأرض بعد أن يعلو لمسافات بعيدة نحو السماء، بينما ستبدو فاه مفتوحة للمارين وكأنها الـــصرخة الأخيرة ، ولكن هي له ربما الابتسامة الأخيرة وسيسكن الحاضر في خشوع ، ولن يعلم المستقبل عنه سوى ما ستقصه الجثـــث المادية المتبقية على الطريق من خلال الكلمات الممتزجة ببعض الحسرات والذكريات وربما الدموع ، ومع الدموع هبت تلك الرائحة عبر أنفه الصغير لتسكنه عندما تذكر وداعه لأمه كطفل قادم إلى الحياة ، يودع رحم أمه بالبكاء البريء الغامض لولوجه إلى تلك الحياة، تمنى لو استطاع أن ينتظر داخل رحم وتمنى لـــو لم يمر بذلك الطريق أبدا ، ولكنه تذكر كلماتها الحالمـــة عـــن

الحياة، كانت تتحدث عن الحياة بلا معـــادلات فيزيائيـــة ، أو طرق هرمية ولا قوانين معقدة ، كانت تحدثه دائما بأن الحيـــاة حين الوداع هي وداع العشاق لبعـــضهم الـــبعض وتتبقـــى الذكريات باسمه بالرغم من الـــدموع ، والآلام الـــتي تعـــاود الاشتباك كل ليلة بالعقل الوحيد والقلب المنكمش في حجـــرة مظلمة آيلة إلى السقوط على الرؤوس . بلا وعى شعر باقتراب بعض الألغاز إلى حلقة تأتى على مهل خبيـــث ؛ لتـــستدرجه وتحاول الهرب إلى الهواء المختلط بأنفاسه المعقدة الـــتي تبـــدو كنهاية عدو طويل من مكان بعيد ، خرجت الكلمات تحدثـــه في سرعة وسكون :

" أليس الوقت مبكرا على الذهاب ؟؟! فكم مـــن طريـــق سلكنا عبر محطات بدت متوقفة إلى حد الموت ، الحياة تدب في قدميك ، الحياة تدب في قدميك ، الحياة تدب في قدميك " .

بدت العبارة الواحدة ألف صرخة وألف قوة دفع كريـــاح عاتية آتية من محيط غاضب لتدفع أحد السفن إما للغـــرق أو السير قدما إلى الأمام ، ترك الخوف قدميه مرتعدا يـــئن علـــى الطريق في فزع مبهم ، بينما تحولت قدميه لأرجوحة صـــغيرة تتراقص على الطريق كأرجوحته الصغيرة هناك وسط الـــورود البرية في المدينة التي لا يسكنها سوى حامل الخطابات الـــذي دائما ما تأتي له خطابات لأناس لا يسكنون المدينة ، ويتعمـــد قراءتها دوما في أوقات وحدته الدائمة ، شعر وكأن الحياة تدب في جمجمته الصغيرة بينما شعر بتلك النسمة تشرق حد أبواب

صدره ويسمع بصدى تام وقع خطواته الصغيرة المتهالكة منذ لحظات مرت ثقيلة ، ومرت خلال خطواته تلك الكلمات :

" عندما تدب الحياة يموت الموت بحسرته "

وجد نفسه على محك النهاية من الطريق تتهافت عليه تلك المشاهد ، ذلك الرجل الكبير ذو الملامح الزمنية الثقيلة ، ولكنها تبدو في قمة تألقها السماوي كنجمة واحدة تتوسط السماء وتلك المرأة التي أخبرته عن ملائكة البحر والسماء والتي بدت كملاك هي أيضا ، وتذكر دمائه التي لطخت دون علمه جسده عندما ضاجع أحد الفتيات التي أخبرته بأنها ليست مرتها الأولى ، ولكنه تساءل من أين ذلك الدم؟! ، مرت اللحظات والمشاهد تتلاقى في كنفه وتلك المباراة الثقيلة بين ملائكة أفكاره والشياطين والذكريات ، وتبقى له الاستمرار أو الاستسلام للانتظار ما بين الحياة والموت .. السيارات قادمة ولن تتوقف لصرخة أو لبكاء ، الحياة تدب في قدميه ، والشياطين قد هوت من بئره ، وعادت الذكريات عليلة مع سخونة الهواء المنبعث من رئتيه الملتحمتان بضراوة الطريق ، وهنا نظر إلى التمثال الذي تحول كاملا إلى روح لم يعهدها على الضفة القديمة وبقياس عيونه استطاع أن يحصي خطواته المتبقية ، هل ستتجمد خطواته مرة أخرى ويكون التجمد الأخير أم ستكتمل الخطوات ويغدو ليتحول هو الآخر من تمثال إلى آلة من الحياة ، سيقف هنا على الطريق منتظرا الإجابة ما بين الحياة والموت .

٦- قعدة قهوة

لكم كانت تلك الجلسات تأخذنا إلى مواضيع لم نتوقعها ولكن هنا قد تنتهي الجلسة بشيء آخر

ذلك المقهى الذي لا يخلو من محمد إبراهيم، ويوسف الرفاعي، وعبد القادر الحقاني وتلك الطاولة التي تبدو ليست كما هي في غيابهم فكم اعتدتهم ، فكم أشتاق لمحادثاتهم اليومية عن أمور الدنيا والدين، والمعارك التي تنشب من آن لأخر على فكرة ما ،عن النظام والحكم وفلسفة العرب والعالم والجنس والحب والزواج والبنات وموضوعات لا تنتهي أبداً .. ولن تنتهي

" أهلا برفاق السوء "

ضحكات عالية تهتز لها الجدران وتخطف الأبصار

" أهلا بالشيطان "

نظر لي محمد إبراهيم بتروي كعادته ثم قال بفتور:

" أتيت متأخرا يا ترى ما الأمر ؟ "

" لا شيء بالمهم "

رمقني عبد القادر الحقاني بابتسامة بينما صاح يوسف الرفاعي مداعبا مرتبا على كتفي قائلا :

" إنه الحب أيها السادة "

ابتسمتُ ابتسامة عريضة لا تخلو من الشجن و لم أنبث ببنت شفة ،ثم عاد محمد إبراهيم بصرامته المعهودة قائلا :

" لنكمل حديثنا "

فالتزمت السكوت لأستمع ربما أشاركهم بالرأي أو بالصمت

فصاح عبد القادر الحقاني قائلا:

" فلوس الدولة تنهب يوما بعد يوم ورجال الحكومة تكذب دائما ولا ثقة في كرسي الحكم "

فنهره محمد إبراهيم بنظرة قوية صلبة تأمره بأن يخفض من صوته ولكنه لم يكترث وأردف قائلاً:

" لا يهمني أحد بعد الآن ، فنحن هنا منذ سبعة سنوات ملقون على أرصفة المقاهي ونتبادل تلك الأحاديث التي لا تعود بفائدة ، يكفينا الصمت ، يكفينا العمر المهدر ويكفينا الكرامة التي بيعت في المزادات الرخيصة وعلى عينك يا تاجر ".

أومأ يوسف الرفاعي برأسه موافقا في أسى ، وبصوت عاقل قال :

" حتى رغيف الخبز صار مصنوعا من المسامير والزجاج وأتربة الشوارع ، وغير ذلك الزحام الشديد كالجائعين

المشردين ، وعليك بخوض المعارك التي قد تصل لمعارك دموية لتحصل على غنيمتك، وإن لم يعجبك عليك بتقديم استقالتك من عالم الحياة ".

أشار محمد إبراهيم بيده إلى أحد العاملين بالمقهى مطبقا شفتيه على بعضهما ثم قال:

" انظروا لذلك العامل هناك، إنه خريج كلية تجارة قسم إدارة أعمال وماذا يعمل؟! ، عامل في مقهى حقير " .

نظرتُ إلى العامل وهو يتنقل في خفة يجاوب الزبائن، بينما تلك اللفافة التي تحيط جسده بها أحد الجيوب التي يحتفظ بها بحساب الزبائن، وذلك القلم خلف أذنه اليمنى، بينما اتضحت عليه ملامح الإعياء الشديد ما بين الخدمة وحساب الزبائن

ثم صمت الجميع، ونظروا إلى محمد إبراهيم مليا ، وفي تساؤل قال يوسف الرفاعي :

" هل تتذكرون عمر الباز ؟ "

أومأ الجميع برأسهم بالإيجاب بينما قال عبد القادر الحقاني:

" نعم ومن يستطيع نسيانه ؟! "

وضحت عليهم ملامح الحزن والذكريات المريرة ثم قال محمد إبراهيم :

" هذا الشاب له من المواقف ما تضعه دائما كبطل، كدوره في انتفاضة فلسطين وإضرابات العمال في مناطق كثيرة، وقضيته التي تبناها ضد الفساد الحكومي ، وحادثة طنطا أيضا ويوم الإضراب المبهر بها " .

" نعم، يا تُرى أين هو الآن ؟ "

قلتها في سرعة ولهفة فلا أستطيع انتظار الإجابة

فأجابني محمد إبراهيم بصوت غير مسموع

" إنه الآن يعمل بإحدى جرائد المعارضة كصحفي وقد تم اعتقاله أكثر من مرة ولكنه لن يتنازل عن قضيته، فرحمة الله عليه " .

ضحك عبد القادر الحقاني بصوت صخب مائلا إلى الوراء وقال:

" نعم رحمة الله عليه ، هكذا نحن إما الصمت أو الثورة والسجون " .

ومع وقع كلمة السجون على مسامعي تذكرت اشتراكي في انتفاضة فلسطين، وما قاسيناه عند رحيل زملائنا بالإسكندرية، وعندما تصارعنا لمعرفة الأسباب قالت الحكومة بكل ثقة وبلامبالاة تُذكر إنها حادثة عارضة وبالفعل لا نقصد الطيش بصناع المستقبل ، آه منك يا بلد .

وهنا قاطع أفكاري محمد إبراهيم ، ونظر إليه باقتضاب حتى تقابلا حاجباه الكثيفان قائلا:

" نحن يا أبناء الفقر والجلد والمعاناة ولدنا من أجل الكفاح ، أما غيرنا ممن فرشت لهم الأرض بالورود يكادوا أن يشمئزوا من تلك الأحاديث الفقيرة البلهاء التي تهدد عرشهم ".

حملت عينيّ بغضبهما ناحيته وبنبرة غاضبة قلت:

" أظن أنني من أبناء تلك البلد يا أستاذ محمد ومصلحتها تهمني أولا وأخيرا" .

ثم بمحاولة ساخرة منه لتهدئة الأجواء قال:

" أنا لم أقصدك يا ابن الأكابر، ولكن أقصد هؤلاء المتسكعون على الطرقات".

فرفعت حاجبي الأيمن، بينما امتعضت شفتاي قائلا:

" ومن هؤلاء ؟ "

فرمقني بابتسامة باهتة و قال:

" هؤلاء من يتسكعون على الطرقات من أولاد الأغنياء ، ويدهسون العالم ولا يأبهون لأي قانون فيدهم هي العليا فوق كل قانون ، فهناك الأب النافذ في عمق السلطة وهوس جمع الأموال ".

ثم قال يوسف الرفاعى في حزن :

" أتذكر تلك الحادثة التي ذهب ضحيتها اثنين من الفتيات نتيجة دهسهما على الطريق والتي أُتهم فيها ذلك الشاب ابن الحسيني رجل الأعمال وقيدت القضية ضد مجهول وكأنه شيئا لم يكن ".. تلاقت أعيننا في صمت أشبه بالغضب لا يخلو من الحزن، بينما أشعلت سيجارة واستمر محمد إبراهيم في شرب النارجيلة في غضب مريب .

ناديتُ على العامل بالمقهى وطلبت فنجان قهوة فأشعر بتقوس عينيّ وميلهما إلى النعاس ، بينما طلب عبد القادر الحقاني كوبا من الشاي (الكشري)، بينما صاح محمد إبراهيم بأن يمده بقطع من النار ليذوب غضبه في أحشاء نارجيلته .

رمقني أحد الأصدقاء في نفس الوقت الذي رمقته فيه، فأنا لم ألتقي به منذ تسعة أشهر ،فإنه يعمل بالإمارات العربية المتحدة، ويبدو أنه قد عاد من السفر ثم توجهت ناحيته في سرعة وابتسامة مرحبة مهللاً قائلا :

" يا أهلا وسهلا بالرحالة "

بينما سمعت همس يوسف الرفاعى إلى البقية قائلا :

أنه يعمل ببلاد الخليج ، ولكنه عاد بعد الكارثة الاقتصادية وما تبعها من أزمات مالية ، كما أنى سمعت عن عودة ما يقرب من مائة ألف عامل مصري "

فسمعت ضحكة لا تخلو من الشماتة من جــوف محمــد إبراهيم قائلا:

" يحيا المقاهي وأهلا بالعائدين "

بينما صفيت ذهني إلى أحمد بابتسامة قائلا :

" أهلا بك في أرض النيل مرة أخرى يا صديقي "

و في ابتسامة يملأها القلق قال :

" أهلا بك يا يحيى كيف حالك ؟ وكيف حال الأهل ؟ "

" الجميع بخير والحمد لله، أخبرني أنت كيــف أحوالــك ؟ وكم ستمكث هنا حتى تعود مرة أخرى إلى الخارج ؟ " .

" إني بخير أحمد الله على كل حال ، ولكنى لن أعود مــرة أخرى " .

فحملقت عينيّ كأنني لا أعلم، و بأداء تمثيلي قلت :

" لماذا ؟ ماذا حدث ؟ "

" لا شيء ، أنت تعلم حال الاقتصاد في جميع أنحاء العــالم وما أصيب به الخليج خاصة من كــوارث اقتــصادية أدت إلى إفلاس العديد من الشركات، ومنها قامت الشركات بترحيــل جميع موظفيها ، بينما الذين لم تصبهم الكارثة بشكل مباشــر

قاموا بالاستغناء عن الموظفين الذين لا حاجة لهم في حد قولهم، للحد من التكاليف المهدرة بلا عائد نافع " .

نظرت إليه بحزن شديد، و في نبرة مواسية قلت له :

" الله كريم ، لا تحزن "

نظر لي بابتسامة محاولا تغيير مجرى الحوار قائلا:

" لا عليك، الله لا ينسى عباده "

تنهد ثم أردف قال :

" وفى السماء رزقكم وما توعدون "

و بابتسامة صافية قلت:

" صدق الكريم الرحيم "

ثم ألحيت عليه بأن يشاركنا ، ولكنه رفض بحجة أنه بصحبة بعض الأصدقاء، ولكنه وعدني باللقاء قريبا ثم عدت إلى الكرسي، بينما وجدت قهوتي أوشكت على البرودة فاحتسيتها في هم مرير شاردا بينما تصدع في مسامعي أصوات الجالسين من حولي وحواراتهم عن مجريات الحياة ، ومشاكلهم اليومية وهم القوت اليومي ، فاعتراني نوبة من الحزن الممتلئة بصيحة من الغضب فانكببت على قهوتي مرة أخرى أرتشف ما تبقى من مرارة .

فسمعت صوت يوسف الرفاعى محدثا عبد القادر الحقـــاني قائلا:

" أتعلم أن حسن حامد سيتزوج الأسبوع القادم "

فضحك عبد القادر الحقاني صائحا بسخرية وقال :

" وأنت متى ستتزوج ؟! "

فرد عليه محمد إبراهيم بسخرية أقوى قائلا :

" عندما تتزوج أيها الأبله "

فضحكنا جميعا في صفو لحظي ، ثم عاد محمد إبراهيم قائلا:

" لكي تتزوج ماذا يلزمك ؟! "

فتجشأ عبد القادر الحقاني واكتسب نبرة غليظـــة كممثـــل مسرحي سيء قائلا :

" الأموااال ، كل ما يلزمك الأمواااال "

فضحكت بدوري قائلا :

" ليس كل شيء المال يا صديقي "

فرمقني الجميع بنظرة عنيفة كأنني ارتكبت جرما صائحين :

" بالمال نشترى الحب ونعلن مراسم الزواج "

فنظرت إلى الجميع صائحا :

" نعم لذلك انتشر الطلاق والفساد الأسرى "

فرمقني محمد إبراهيم بنظرة غليظة وبسخرية قائلا :

" أفدتنا يا شيخ "

لم أكترث له ثم أردفت قائلا :

" ألا تسمعون عن الحب الـــذي يُـــشترى بالمـــال ، زواج الصالونات في حد رأيي مشروع فاشل " .

فأشار يوسف الرفاعى بيده كأنه يودع أحدهم ذات اليمين وذات اليسار معارضا ثم قال:

" بالله عليك كفانا فلسفة "

نظرت إليه في معارضة وقلت:

" إذا لماذا ازداد الطلاق في مجتمعنا، حـــدثني أنـــت عـــن الأسباب ؟ "

فقال عبد القادر الحقاني :

" ما سمعته عن ارتفاع معدل الطلاق إنه بـــسبب العجـــز الجنسي وما يتعلق به "

فقلت بسخرية :

" هراء "

فصاح محمد إبراهيم قائلا:

" إذا حدثنا أنت "

حاولت التقاط أنفاسي الضائعة في محور الغضب ثم قلت :

" إنه عدم التفاهم يا صديقي هو العامل الأول على فشل الزواج ، الفجوة بين رجل وامرأة لا يجمعهما سوى جلسة أو جلستين قبل الزواج ، وضغط الأهل بأنه الحل المناسب والعريس المرتقب، وأنه أفضل المتقدمين "

فصاح يوسف الرفاعي بغضب قائلا:

" بالله عليك لا تقحمنا في حديث عقيم . قل لي أنت كيف تزوج أبائنا وأمهاتنا ؟! "

فنظرت إليه بينما امتعضت شفتاي ؛ فلا جدوى من النقاش ثم قلت :

" إنه اختلاف الزمن والعادات والتقاليد والعولمة والإنترنت"

فضحك محمد إبراهيم ثم اسودت عيناه ثم قال :

" نعم العالم الإلكتروني وتواصل الأفكار "

فقال عبد القادر الحقاني:

" كل يوم أنا في حب امرأة أخرى "

فضحكنا جميعا ثم قلت بنبرة صلبة :

" إن العالم الإلكتروني كارثة بكل المقاييس "

فقال يوسف الرفاعي :

" لكن هو كارثة فقط لمن يسيء استخدامه "

فأومأت برأسي موافقا، بينما هز الجميع رؤوسهم بالموافقة أيضا ثم أردف قائلا :

" لولا العالم الإلكتروني لما وصلت إلينا العديد من المعلومات والتعرف على ثقافات وأفكار العوالم الأخرى حتى أعـــدائنا ، فإنه يجعلنا في تواصل دائم مع العالم " .

أومأت برأسي موافقا ثم قلت :

" نعم ، ومن خلاله تستطيع الحصول على عمل "

فقال محمد إبراهيم :

" أي عمل ، فقد قمت بالاتصال بجميع شركات العالم "

ثم ضحك وأردف قائلا:

" ولم يأتني جواب من أحد "

فنظر يوسف الرفاعي وقال بسخرية :

" ربما أنك مفصول عن العالم الإلكتروني ، تحقق من وضع حاسوبك "

فضحكنا جميعا ، بينما رجعت للوراء جالسا على القدمين الخلفيتين للكرسي متأرجحا ثم قلت :

" الوساطة هي كل شيء في عالمنا الآن "

وبحزن قال محمد إبراهيم :

" ومن لا يملك وساطة لا عمل له ولا حياة "

فقال عبد القادر الحقاني بتفاؤل :

" نحن هنا للترويج والتنفيس لا للحزن والتهويل "

فقال محمد إبراهيم :

" وماذا أنا بفاعل فأنا أقوم بالتنفيس بالفعل "

فقال يوسف الرفاعي :

" بل أنت تتساقط كورقات زارها الخريف "

فنظرت إليه مربتا على كتفه قائلا :

" ستجد فرصتك ، تمسك بالصبر" .

فنظر لي ورمقني بابتسامة حزينة ثم قال :

" أي صبر يا يحيى وأنا على مداخل الثلاثينات، متى أتـــزوج ومتى أنجب ومتى ....ومتى .... ؟؟؟ "

نظرت إليه بحزن و بنظرة مواسية قلت:

" فرج الله قريب "

فقال وهو يهز رأسه في أسى واقتناع :

" ونعم بالله "

ثم أشعلت سيجارة بينما شرب الشاي البارد كعادته قائلا :

" تبا لتلك الحكومة وتبا للقوانين وتبا لتلك الحياة " .

فصمت الجميع ثم نظر لي محمد إبراهيم في تهجم وقال:

" أتعلم يا يوسف ما مشكلتنا ؟ "

فنظر إليه يوسف بعيون متسائلة دون أن ينبس ببنت شفة ثم قال إبراهيم:

" الصمت "

نظرنا إليه بعيون حائرة ثم قلت :

" أي صمت تقصد ؟!"

" الشعب المصري هو شعب طيب بدوره ويخاف من المواجهة ويقبل بكل القوانين ولا يعارض السلطات ولا يناقش القواعد ودائما في حالة سلبية، ولا يتحرك دائما إلا بعد وقوع الكوارث ".

ثم صمت للحظات وأردف بعيون صارخة يعتريها الغضب قائلا:

" لنصرخ ضد الصمت لنصرخ ضد الديكتاتورية لنصرخ ضد الحصار السياسي لنصرخ ضد الوساطة ، ولنصرخ ضد مجالس الصالونات ولنصرخ ضد القوانين التي تقتلنا مائة ألف مرة في اللحظة الواحدة ، فما أصعب أن تشعر بالموت وأنت حي ترزق ، لنصرخ أيها الشباب "

صمت الجميع بينما نادينا العامل متوسلين أن يمدنا بكوب من الشاي وقهوة مريرة .

٧- لكم أشعر بالبرد

عندما تشعر بالبرد، انفخ بقوة في يديك ولكن
صدقني لن تجد رداً سوى انتهاء انفاسك

(١)

إنه السحاب الذي يلامس جبينه المائل إلى سمرة النيـــل ، وعيناه المتطلعان بشغف إلى ما خلف ستائر الـــسماء الباثقـــة خلف وديان المجهول ، يأخذ نفسا عميقا ، بينما تتهافت على رأسه الأفكار في شكل قوس قزح ، كذلك الباحث عن شيء ولكنه يملى نفسه ويُمنيها بالأمل المنبثق مع ذلك البياض الـــذي غطى عينيه ، نعم السحاب يكاد يشبه القطن في بلده الجميل ، كم هي رائعة أيام الصبا بما تحملها من أمنيات ونزوات معلقـــة على جدوله اليومي القديم ، غابت عينـــاه وهمـــس باشـــتياق جارف من النافذة التي تطل على السماء ..

" كم اشتقت إليك يا أم الدنيا .. أخيراً سأعود "

تنهد بنوع من الحنين ثم ابتسم ابتسامة ، كادت حدود فمه أن تلامس أذنيه ثم همس كطفل صغير :

" نعم مصر ، وحبيبتي التي اشتقت إليها "

ثم في بطء تلاشت الابتسامة ؛ لتدور أحداث حياته قبل السفر إلى أمريكا التي قضى بها عامين تقريبا ، وهناك على مرمى ذكرياته الغارقة في السماء المفعمة بالثلج الأبيض رآها تتراقص من حوله في ليالي أعياد الميلاد ، رأى هناك ابتسامته وضحكاتها ترج أرجاء السماء وتقتلع أعمدتها وهو يرنو إليها ، بينما حبه يتألق في الأفق حد عينيه حتى شعر بيديه تحاول أن تلامس تلك الذكريات القديمة من حدود نافذته الصغيرة من تلك الطائرة التي تفصله عن نشوة اللعب بذكرياته في جوف السماء .

ابتسم فى رضا كامل عندما أعلن قائد الطائرة أن كل المسافات انتهت ، وكل الإرهاق والتعب قد ذهب الآن ، تستطيعون الآن أن تقذفوا كل الأيام البالية بقوة من شرفات عقولكم وأجسادكم المتهاوية في ذكرى الحنين إلى الماضي ، وكل ما عليكم ان تأخذوا نفساً عميقاً من أجل الهبوط إلى أرض السلام والذكريات الجميلة .

كادت ابتسامته أن تقطع الهواء الصامت فى الطائرة ؛ لتغدو لحناً عميقاً بفرحة الإنتصار ، ثم همس لنفسه قائلا :

" نعم إنها دقائق معدودة وسأتراقص على أرض الوطن كعهدي القديم "

" نحمد لله على السلامة "

ثم في فرحة تملأ ملامحه

" الله يسلمك "

أومأ برأسه ناظرا إلى جواز المرور

" تستطيع الدخول وأهلا بك مــرة أخــرى في وطنــك الحبيب".

يبدو أن كل الكلمات لا تستطيع أن تعبر عن مدى سعادته، أومأ برأسه بالرضا واحتفظ بابتسامة خفيفة ، فهناك الكــثيرين ممن لهم الحق فى كل الابتسامات المنتظرة ،والتي يغلفهــا قلبــه بالحنين ، ثم مالت عينيه في لهفة غريزية باحثة عن شيء ما ، إنها الحبيبة فإن عيناه تفضحه تماما وبينما تمر عيناه بــين المنتظــرين والمغادرين ، رأى عيوناً تملأ الكؤوس دموعاً من وقع رحيــل أحدهم وتلك الوجوه الشاحبة تماماً استعداداً لرحيل ما إلى بلد ربما بعيد جدا أو بعيد فقط فلا يهم المهم أنه لــيس هنــا ، ثم ذهب بأعينه ليرى ذلك الراكض عــدواً كأنــه في ســباق (الماريسون) الشهير وعليه الفوز حتماُ ، يركض للقاء الأحبــة المنهمكين في طيات الانتظار ، مازالت عيناه تتفرس في عمق ، وتضاءلت عيناه في الاتساع كأنما أشرف على البكاء وها هــي أخيرا هناك ، نعم هي !! .

(٢)

وهناك على مرمى بصره إذ هي تقف هناك ؛ منتظرة بشغف وحنين، تتلفت وتتفرس في وجوه القادمين محدثة نفسها :

" أهذا حبيبي ؟ لا ليس هو "

هالة من الحزن ومن الأرق تعتريها

" أهذا هو ؟ لا ليس هو "

تتلفت مرة أخرى في سرعة وكدر، همست بنبرة لا تستطيع الانتظار وتتوق للقاء .

" أين أنت يا أحمد ؟ أين أنت ؟! "

ثم فاجأها وجهه الذي يملأه الحنين ، بينما انصبت في عينيه دمعات لا يعرف من أين أتت ولكنها وصلت دون علم مسبق، همس في حنين واشتياق ونبرة تملأها العودة إلى الذكريات قائلاً:

" غادة ، أنا هنا أخيرا " .

نظرت إليه وقد اكتظت عيناها بالدموع وابتسامة ترتجف على شفتاها لتصدق أنه بالفعل هنا أمامها بعينيه الواسعتين الذي طالما يخفيهما خلف نظارته الشمسية ، تلك العادة التي دائما ما تثيرها لإخفاء عينيه خلف ذلك الستار الزجاجي الأسود ، فكم تتوق لرؤية عينيه ، ثم مدت يديها لينتشلها من

لحظة شرودها الأسير في مرمى روحها الهاوية لتصدق أنه بالفعل هنا قائلة بصوت متقطع :

" أحمد، حمدا لله على سلامتك ، حمدا لله على سلامتك ".

أبى أن يمد يده لمصافحتها، ولكنه فتح ذراعيه لترتمي فيهما دون أن تدرى، دون أن تدرى اختلطت دقاتها المتسارعة بدقاته التي تمر كقاطرة بخارية تأخرت في الطريق وعليها الإسراع ، وهناك استكانت القلوب وهدأت الدقات بينما تسارعت الأيدي في غلق كل الفجوات الفاصلة بينهما، لم تتحمل الأعين اختناقاً فقرعت الأبواب، وهرعت هاربة ، لتبلل كتفيها وصدره وبعض خصلات من شعرها .

قالت باهتمام مبالغ حيث تشابكت الأصابع فى عناق حميم بينما تجرى القدمين سيراً تجاه السيارة التي تنتظره منذ عامين لتأخذه إلى منزله كما أرسلته قبلا إلى الغربة .

" كيف حالك يا أحمد ؟ "

همس بابتسامة عريضة متفرسا عينيها :

" إنني بخير يا غادة، الآن في حضن وطني وحضن حبيبتي "

أصابها نوع من الخجل الأنثوى المميز ونظرت للحظة إلى الأرض، ثم عادت إلى عينيه مسترقة النظر قائلة :

" وأنا فقط بخير الآن يا أحمد "

دخلا إلى السيارة جنبا إلى جنب بينما ساد صمت متشوق لما يدور بينهما في سكون عميق ، تسير السيارات على طرقات مصر القديمة، بينما أحمد خالد يحتضن كل مبنى وكل شارع في عينيّ غادة التي أضاءت منذ اللحظة الأولى لوصوله وهمس لنفسه في ارتياح :

" كم هو جميل أن ترى الوطن كما يجب أن يكون " .

(٣)

لاح حد نظره بيته القديم وأحلامه الطفولية تتسارع حـــد عينيه ، ترجل جسده في ارتياح كامل من السيارة ، ثم بـــدون وعى نظر يمينا ليرى نفسه يلهو مع أصـــدقاء الجامعـــة هنـــاك وتتعالى الضحكات لتملأ البهجة في المنازل المطلة على شـــارع الذكريات ، هبت تنهيدة صماء من بين رئتيه وكأنه يقـــذف كل أيام الفراق ، بينما رفع رأسه إلى السماء وتمتم بكلمـــات سمعها قلبه في فرحة عارمة ، أنه يشكر ربه همسات لا يـــدرى بها غيره، فكم من مرة تصور ذلك المشهد منـــذ اليـــوم الأول لمغادرته أرض الوطن . ثم عاد ناظرا إلى غادة التي لم ترتجل من السيارة بعد بابتسامة طفولية وملامح لم تغيرها ســـنتان مـــن الغربة.

ثم قال والابتسامة ما زالت تعلو جبهته وتتعلق بلهفة علـــى شفتيه :

" سأذهب الآن يا غادة وسأكون على اتصال بك "

ثم بطريقة غزلية تملأها روح الشباب همس لها قائلا :

" أريد أيضا التحدث إلى والدك "

احمر وجهها خجلا ولكن ذلك لم يدارى فرحتـــها الـــتي انبثقت كموج جارف من بحر أصابه السكون ثم قالت :

" فقط خذ راحتك واسترح من عناء السفر "

علته ابتسامة أخرى وبسرعة البرق أجاب قائلا :

" لن أستريح حتى يكلل حبنا ، وتتم بإذن الله خطبتنا "

ثم أطبق يديه على يديها في حنان غائب منذ عهد قديم وكأنه يعيد الذكريات القديمة التي لم تفارقها في لحظة وداع وقال بعينين تكره الوداع :

" في أمان الله يا غادة "

قالت بنوع من النفور المختفي وعدم الرغبة في الذهاب :

" في أمان الله يا أحمد "

(٤)

يهلل البيت في شكل غريب ، وكأن الفرحة لم تدخل عبر أبوابه منذ قرن بينما تحتضنه كل الأركان في سكون، وتعلو دقات القلوب في جوفه ما بين أمه وأبيه وأخته لمياء ، ثم أمه بملاطفة تملأها الأمومة والدفء

" لماذا لم تخبرنا أيها الشقي بأنك عائد إلينا اليوم ؟ "

ثم بابتسامة لا تفارق ملامح أمه التي اشتاق لها شوقا جارفا قال :

" أردت أن أجعلها مفاجأة "

ثم قال أبيه بنوع من المزاح :

" ربما أراد أن يرى وجها أخر بعد سنوات الجفاء " .

ضحك عاليا ثم قال بنبرة يملأها عدم القدرة على الكذب :

" بالله عليك يا أبي فأنت تعلم جيدا أنني أحب المفاجآت "

ثم اقتربت أخته وارتمت على قدميه جالسة ثم نظرت إليه ضاحكة وكأنها تعلم ما حدث فعلا قائلة :

" نعم ، تحب المفاجآت أعلم ذلك جيدا "

ضحك بصوت عالي ثم قال بنوع من الممازحة

" يا قوم ، المهم أنني هنا بين أحضانكم "

مر الوقت بين الملاطفة والضحكات ومعاودة الـذكريات القديمة ،وعيناه المتفرستان في ملامح من غاب عنهم ليحدد ماذا فعلت بهم أيام غيابه ،ولكنه أخيرا هنا بين سماء البيت وأرض الوطن .

" قم واسترح يا أحمد ، فغرفتك كما تركتها آخر مرة لم يدخلها أحد فلم أتحمل فكرة دخولها في غيابك " هكذا حدثته أمه في حنان لا مثيل له .

فتح باب غرفته في سكون وحذر شديدين ، صوت الباب يصهل فرحا فأخيرا قد تم الإفراج عنه وقد عاد إليه صاحبه الغائب ، دخل بخطوات وهنة تملأها الفضول ، بينما مع كل خطوة ثارت ألف ذكرى ما بين الضحكات والدموع ، ما بين تلك الشرفة التي لم يفارقها من أجل بنت الجيران وذلك المنبه بجوار سريره الذي يحمل ذكريات مزعجة ومضحكة في نفس الوقت ، وذلك الدولاب الذي طالما اختبئ به حتى لا ينال العقاب لخطأ اقترفه ، وذلك السرير الذي حمل كل لحظات فرحه وضيقه وحزنه ،السرير الذي طالما قرأ وهو نائم عليه الخطابات وتحدث عبر الهاتف وهو يعتليه إلى غادة ، وهناك في الأركان تقبع ألف ذكرى يستحيل على المرء نسيانها وإن قسي الزمان ، فكيف له أن ينسى ما لا يُنسى .

(٥)

" أنت تعلمين جيدا أن أحمد قد غاب عنك لسنتين كاملتين وربما تغير "

نظرت إليها في غضب وعدم تصديق ثم قالت :

" أنت تعلمين جيدا أن أحمد يحبني مهمـــا طالـــت بيننـــا المسافات وقد حدثني أيضا أنه قادم لملاقاة أبي "

" لكنك تعلمين جيدا أن من بعيد عن العـــين بعيـــد عـــن القلب"

ثم بنفور مباغت واستعداد لبدء معركة قد تكون دامية

" لكن هذا لا ينطبق على علاقتي بأحمد فمنذ أن ســـافر و لم ينقطع الوصال بيننا ثم أنه عاد وقادم لخطبتي "

فقالت في عدم اقتناع :

" أتمنى ذلك حقا ، فأنت صديقتي الوحيدة وأخاف عليكِ "

فقالت في محاولة لتهدئة الأمور:

" لا تخافي فأنا أعلم جيدا أنه يحبني ولذلك عاد ليتم المراد "

ساد الصمت للحظات ثم أردفت :

" إنه يحبني بالفعل ولن يذهب من هنا مرة أخرى إلا وأنـــا خطيبته "

" أيسافر ثانية ؟؟ لماذا ؟ "

" لأنه يحتاج لمزيد من الوقت ليؤمن مستقبله فأنت تعلمـــين الحال الآن في مصر ، كما أنه ليس جاهزا بالكامل للزواج الآن ولن يغيب طويلا تلك المرة "

تنهدت في ازدراء، ثم اكتفت بالصمت للحظات، ثم قالت بابتسامة باهتة :

" وفقكما الله يا غادة "

(٦)

تطل كنسمة شتوية تلامس الملامــح في ملاطفــة لاذعــة بفستانها الطويل المفصل بعناية ، ربما استغرقت السنتين لأجــل ذلك اليوم ،وتوهجت عينيها كبركان نار ولكنه اشتعل ليضفي مزيدا من الدفء في أرض لم يزرها الدفء منذ ألف عام، بينما يطل أحمد كبرنس من عهد النبلاء في حليتــه وهــو يمتطــى الكرسي المرصع ، كرسي العرش بينما تطل من عينيــه نظــرة غامضة ساكنة تملأها السرور بين الحين والآخر ، ملك وملكة يتوسطان ذلك الحفل والمراسم التي تعلنهما زوجين المستقبل إنه حفل الخطوبة الذي حضره العديد من الأصدقاء ،منــهم مــن جاءوا من قريب ومنهم من قطع المسافات الطويلة ليبارك تلك المناسبة، وفرصة مواتية للقاء الغائب منذ ســنتين دون أخبــار مؤكدة عن حالته وماذا حل به خلال سنتان ؟، علت الزغاريد بينما هلل الأطفال وسط الحلوى الملقاة هنا وهناك علــى أرض احتلتها الفرحات. واجتمع الكثيرون حول مناقشات معــدودة لكنها لا تخلو من الابتسامات والضحكات التي تــشهد لهــا جدران مترل غادة ، فقد أصر خالد على أن تــتم الخطبــة في مترلها فكم يكره جو القاعات وربما لنظرة متشائمة لديه منــها كما أنه على عجلة من أمره فلم يبقى لديه سوى شهر تقريبــا

لمغادرة البلاد مرة أخرى، والأمر لا يحتمل مزيدا من التأخير لتجهيز قاعة ما لذلك، وربما يكون هذا هو الذي يضفي عليه جوا من الشرود من حين لآخر، فكيف له أن يغادر عروسه بعد شهر من الخطبة فكم يتشوق لها ولكن ربما لا يكون ذلك السبب هو سر شروده من آن لآخر، فحقا إنه لا يعلم ماذا حل به ، بينما تعلقت عيناه دون وعى بعينيهاو همس لنفسه قائلا :

" لا أدرى حقا ماذا بى ولكن لما لا أشعر بالفرحة التي تصورتها لسنتين ، ربما لأنني تصورتها كثيرا فاعتدتها، وإعادة تصويرها في الواقع لم يضفِ عليها الحس الذي طالما تصورته فلكم كان الخيال أقوى وأجمل كثيرا من الواقع ، ربما "

قاطعته يد غادة الناعمة في رقة مبالغة ،وفى محاولة للاندماج معه في حديث قائلة بابتسامة :

" هل أنت سعيد يا احمد ؟ "

" بالطبع أنا سعيد للغاية "

نظرت إليه وتعقد جبينها كأنما لم تشعر كلماته بنفس السعادة التي يتحدث بها وقالت

" أحقا سعيد؟! "

فرمقها بغرابة شديدة ورفع حاجبه الأيمن ثم قال :

" بالطبع يا حبيبتي أنا سعيد "

ربت على يديها في ملاطفة لمحاولة انتزاع الخوف من داخلها وفى ابتسامة صنعها بسحر خفي ثم مال عليها وهمس بأذنها :

" إن لم أكن سعيدا الآن فمتى تكون السعادة إذن ؟! "

ثم عاد للوراء وحرك شفتيه دون أن ينطق على طريقة أبطال أفلام الأبيض والأسود ولكنها كانت واضحة للجميع ليس لغادة فقط :

" أحبك "

ابتسمت وقد زالت الحيرة تماما من على ملامحها، ونظرت في خجل للحاضرين ثم رمقت الأرض في سرعة اجتنابا لبعض التعليقات التي قد تثير حمرة وجهها أكثر.

مرت الليلة في تناغم ما بين الحاضرين، وعلا صوت الفرحة كل الأصوات وخصوصا أهل العروسين المنتظرين بشغف قدوم تلك المناسبة منذ عهد ليس بالقديم ، وفى نهاية الحفل وبعدما ذهب الجميع ودع خالد حبيبته بابتسامة طاغية أسرت قلبها المغرم بحبه ، بينما خرج خالد تناوشه الأسئلة الغامضة والألغاز المحيرة لما يدور داخله ولماذا يعتريه ذلك الإحساس الغريب ؟ لماذا لم يشعر بالفرحة العارمة كما تصور مرارا وتكرارا ، ذهب في بئر بلا قاع من الأحاسيس المتباينة وعلامات الاستفهام التي لم يفهم لها سببا، ولكن بمحاولة لطيفة من الرياح القادمة من نافذة غرفته حاول تبديد كل شيء وإلقاؤه خلفه، فكل هذا ما

هو إلا وساوس شيطانية وأرق ربما من السفر ورحلته الطويلة ، ثم همس لنفسه في محاولة للهروب من شيطانه الآثم :

" حان الوقت لأنام في رحاب الملائكة وتبـا لـك أيهـا الشيطان "

(٧)

مر الشهر بين أحمد وغادة بين الاستمتاع ببرودة الجو المتلفع بفرحة غادة العارمة، وسكون أحمد ما بين الصمت والابتسامات التي لا تعرف لقلبه طريق، محاطا بأسئلة لا تعرف أي مغزى ولا تنبث ببنت شفة علم إلى قلبه المتمزق بين أدراج السعادة المتصاعدة في أنفاس غادة التي يخشى إفسادها بما حل به من أمر لا يدركه تماما . إنها تسير إلى جنبه تحيط جسده بذراعها وكأنها استكانت إلى إحدى الأشجار لتحتمي من أمطار الزمن الرعدية ، فكم هو آمن أن نجد حجرة تأوي من مخاوف الحياة الغامضة وما أجملها إن تزينت برجل يحب بصدق، مرت الأيام تلو الأخرى ما بين شاطئ البحر في الإسكندرية و ذكريات ستكتبها أنامل غادة يوما عن ليالي الدفء والحب، فكيف لها أن تنسى تلك الشتوية التي أهدتها حب العمر تحت الأمطار اللؤلئية التي ترسم ملامح مستقبلها الوردي .. جاءت لحظات العودة ثقيلة على القلب تتوسطها دمعات قاتمة السواد، ولكن يغفو الأمل في العودة قريبا على يدي أحمد المتلمسة جدار ملامحها في ذلك المطار ثانية الذي شهد عودته المباركة إلى أحضان إحساسها المتلهف، إلى كل لمسة دافئة تمر خلال ملامحها وتعيد إليها ذكرياتها خلسة في عهد الأنين والفراق .. نظر إليها في محاولة لتهدءة وجعها المتمثل في دمعات تكاد تحجب رؤيته عنها قائلا:

" غادة لا تبكي سأعود قريبا إن شاء الله "

" عدني يا أحمد أن تعود في أقرب وقت ولا تطل غيبتك "

ثم بعيون مستسلمة لرقائق ملامحها الباهتة من وقع الـــدموع قال بابتسامة باهتة :

" أنت تعلمين أنني لم أُخلف كلمة يومـــا .. وســـأعود في أقرب فرصة مواتية كما اتفقنا من قبل "

نظرت إليه وكلها إيمان صارم به كإيمان بعقيـــدة لا تقبـــل النقاش، بينما أُعلنت في تلك اللحظة في أرجاء المطار أن الوقت قد حان للانتقال إلى الطائرة المغادرة إلى أمريكا خلال خمـــس دقائق ، ودون وعى رشيد ارتطمت غادة بجدار أحمد الصدري مسترسلة كل عواطفها لتقاوم بركانها الفياض المنبعـث مـــن أقصى أعماقها لتقاوم لحظات الوداع ، فأي دار غـــير صـــدر أحمد لتختبئ به من المواجع المنتظرة وآلام الزمان المُخلّفة بعـــد الفراق ، عانقها بشدة تكاد تكون أقوى من عناق الوصـــول، بينما ذهبت عيونها تتفرس خطواته المبتعدة في وهن، والراكـــدة أحيانا كبحيرة أوشكت على الجفاف ، ثم ذهبت عيونه إليها في نظرة أخيرة كأنه يستعطف الزمان على التوقـــف الأخـــير ، ثم لوح إليها بيديه في حزن شديد بينما شعرت هي بثقل شديد في يديها فاستسلمت لذلك متحولة إلى تمثال لا يتحرك به ســـوى

ذلك الجزء الآدمي الدامع المنهمر بشدة كليلة شتوية صارخة الغضب .

إنها النافذة مرة أخرى، ولكن الجو سقيم للغاية تملأه سحابات داكنة السواد وكأنها حجبت السماء إلى الأبد ، وتلك الشمس التي تبدو أنها لم تشرق يوما في تلك السماء الغائبة عن الوعي ، استعداد تام ليوم غاضب بلا جدال فكل الأمور مهيأة إما لعاصفة أو كارثة ، ثم همس لنفسه في ثبات تام ومحاولة لتهدئه نفسه الثائرة تماما و ارتسمت تلك الابتسامة الباهتة :

" سأعود قريبا نعم سأعود "

ولكنه لم يدرى حقا شيئا غريبا تطاول بعمق إلى محيط أفكاره ، لماذا لم يشعر بعد مرور لحظات بذلك الألم بين يدي غادة لحظة الودا ع ؟!، لماذا زال كل شيء في غضون دقائق معدودة ؟! ، يا لا هذا الشيطان الذي يصور كل شيء حقا كما لا يجب أن يكون، ثم همس لنفسه ثانيا محاولا استعادة رباطة جأشه وعقله الشارد على طرق بعيدة قائلا فى حزم :

" ربما الغربة خلقت منى إنسانا قوى الطبع لا تهزه العواطف لدرجة كبيرة كما في السابق نعم إنني ناضج وهذا كل شيء .. نعم هذا كل شيء "

كان يعلم جيدا أن رغم تصريحه الأخير لنفسه أنه مـــا زال هناك شيء ما مختفي خلف طيات نفسه الزاحفة إلى أرض مـــن الجنون والتباين لكنه استلقى برأسه إلى الخلف قاذفا كل شيء خلفه بسرعة البرق، وأغمض عينيـــه ثم تمـــتم بـــصوت غـــير مسموع:

" لتكن الرحلة الأخيرة "

(٨)

" يا لك من رجل أكل ذلك غياب ؟ " قالها السيد مايكـــل مبتسما في محاولة لمصافحة عميقة تنم عن وحشته له

قال أحمد بنوع من الممازحة :

" لم أغب يا رجل فأنت تعلم تماما أن تلك المدة غير كافية لرجل من مصر "

" كيف حال العودة إلى العمل ؟ "

تنهد أحمد ثم قال بفتور :

" كما ترى "

ثم قال مايكل الرجل الأمريكي الفارع القوام ضخم الجثـــة جاحظ عينين خضراوين :

" ها سمعت أنه قد تمت خطبتك "

ثم صمت للحظة ليشعل سيجارته ثم أردف قائلا :

" تهانينا القلبية سيد أحمد "

ابتسم احمد وطرق ساكناً بينما قال مايكل والدخان يتطاير ليسد الفراغ بينهما :

" لا أشك في جمالها فانا أعلم ذوقك الرفيع جيدا "

ضحك أحمد مائلا للوراء ثم قال :

" كما ترى يا سيد مايكل "

ثم بلهجة جدية قال :

" في غيابك أتينا بالعديد من الموظفين لاتساع دائرة العمل كما تعلم ،وقد أتينا ببعض الجدد الذين سنقوم بتدريبهم لمدة كافية حتى يتسنى لنا التحكم في التكلفة كما تعلم الحال الاقتصادي الآن ولا نريد العودة إلى الوراء "

هز أحمد رأسه مبديا الموافقة ثم قال :

" نعم ، يبدو ذلك جيدا للغاية "

ثم نفخ مايكل الدخان في الهواء بطريقة ارستقراطية كباشا من عهد الباشاوات في عهد الانجليز ثم قال بجدية رجل محنك :

" لذلك يا أحمد لقد قررت أن تقوم أنت بتدريب أحدهم بنفسك ، فأنا أعلم مثاليتك في العمل كما أنني قد قمت بتوزيع جميع الجدد على جميع الموظفين بعناية "

أومأ أحمد برأسه مبديا الموافقة التي تعلوها ابتسامة قائلا :

" هذا من دواعي سروري سيد مايكل " :

" دعنا لا نضيع الوقت ، سأقابلك بها في الحال "

نظر أحمد إليه وهو يجر أذياله إلى باب غرفة المكتب لينادى بصوت مسموع :

" نادية تعالى هنا "

لمعت عينا أحمد فالاسم يبدو عربيا لكن ما الحكمة فكـــثير من الأمريكان يطلقون ذلك الاسم على بناتهن ،ثم دخلت تلك الفتاة التي تحمل من الجمال ما لا تحمله مائة فتاة في آن واحد ، وهلت على أحمد كشمس لم تشرق منذ ألف نهـــار بـــشعرها الأسود الساحر كليل لا تشوبه سوى النجوم المزينة للـــسماء والقمر المستلقي في أحضان السماء لينير ظلمة العاشقين ، بينما عينيها الواسعتين اللامعة الـــشديدة البنيـــة وعودهـــا المنـــسق باحتراف ريشة فنان فهي كما تبدو له عربية ولا تمس بأي صلة لبلاد الغرب ، وكأنه يعلمها منذ أمد طويل وحانـــت لحظـــة اللقاء الآن ، لمعت عيناه في ابتسامة قوية ووجه مشرق حجـــز شعاع الشمس المحاولة بجهد اختراق حواجز نافذته المغلقة .

اقتربت ببطيء تعلوها ابتسامة ساحرة بينما قال مايكل :

" نادية . هذا السيد أحمد وستكونين من الآن وصاعدا تحت تصرفه وسيوليك برعايته في العمل ، فهو إنسان دقيق في العمل كما حدثتك وستكتسبين خبرة من العمل معه "

اقتربت من أحمد ومدت يديها لتصافحه بينما لمعت عيناهـــا في سؤال غريب ثم مد خالد يده بدوره، واشبكها بها في لطف شديد ورقة متناهية ربما لا يعلم سرها ثم قال بنوع من المداعبة اللطيفة :

" أهلا بك يا نادية ، إنه لمن دواعي سروري أن يكون لدى تلميذة لها نفس جمالك "

ثم قال السيد مايكل وكأنه قد نسى شيئا

" بالمناسبة يا أحمد ، إنها مغربية أي إنها عربية فلن يكـــون هناك عائق إذا في الثقافات وسيسهل ذلك مهمتك تماما "

نظر إليه أحمد بابتسامة عريضة ممازحا :

" لا أظن أن أي ثقافة تستطيع تحدى الجمال سيد مايكل "

ضحكوا جميعا بينما سادت ضحكتها شعور غريب بأنهـــا تعرف ذلك الشاب العميق العينين الذي يعود نـــسبه إلى أرض السحر فلكم تتمنى رؤية نهر النيل.

(٩)

" كم أشعر بالوحدة دونه "

قالتها في حزن عميق بينما أومأت برأسها متطلعة لـــلأرض التي لو تتمنى أن تنشق وتبلعها أو تنشق وتقذف لها أحمد مـــن بين أوحالها الصماء.

نظرت إليها صديقتها إيمان في حزن ثم طبطبت على كتفها في تودد قائلة :

" لا عليك يا غادة ، سيعود قريبا وتكتمل الفرحة وتكلـــل بزواجكما "

نظرت إليها نظرات مترددة كمن يخفى شيئا ثم قالت :

" لا أعلم يا إيمان ينتابني شعور غريب بأنه لن يعود "

نظرت إليها إيمان نظرة شاردة ثم قالت :

" لا تقولي ذلك سيعود إن شاء الله قريبا " .

وكأنها لم تسمعها وأكملت حديثها الذي بدا لإيمان أنهـــا تحت تأثير منبه ما أو ربما تعاطت إحدى الحبوب الـــتي أودت بعقلها، أو ربما تعاطت إحدى أنواع المخدرات التي لا تنتظـــر حتى تنبش في عقلك وتجوفه إلى أقصى بئر ممكن بينما قالـــت غادة بسرعة طفولية

" أتعلمين يا إيمان ، لم يكن هو أحمد "

نظرت إليها إيمان بعيون اقتربت على الجحوظ بينما أكملت غادة قائلة :

" نعم لا تتعجبين ، لم أشعره أحمد الـــذي أعرفـــه رغـــم استماتته من أجل أن ينعش الذكريات ،ويرسم عهدا جديـــدا ليداوى ذكريات قديمة بأخرى حديثة المنشأ "

نظرت إليها غادة في امتعاض للحظات ثم ضحكت ضحكة هستيرية كإحدى الغانيات في إحدى الخمارات، و لم تعلم إيمان سر تلك الضحكة حتى هتفت الأخرى :

" ربما لأنني لست من رعاة البقر ،هيا أيها الأحمـــق أيـــن السيارة لنسطو على ذلك البنك، وأيـــن بـــاقي الأعـــضاء في عصاباتنا الشريرة "

بدا لإيمان أن صديقتها في حالة من الضياع وربما على شفا السقوط إلى الهاوية، وربما سقطت بالفعـــل ، ثم أفاقـــت مـــن تفكيرها على بكاء غادة حيث تحولت إلى ذلك المهرج الـــذي يصطنع المشاهد والحركات البهلوانية وتقمص الأدوار البوليسية صائحة :

" أنا فتاة هوليود "

بينما تغطيها الدموع في مشهد درامي لإحـــدى بطـــلات السينما الكلاسيكية .

ضمتها إيمان إلى صدرها لتهدئ من روعها ومحاولة ذبح أفكارها المستميتة في محاولة القضاء عليها ، بدت غادة شبه محطمة أن لم تكن كذلك بالفعل ، أنفاسها الساخنة الصاعدة إلى الهواء كانت تدق صدر إيمان ، وذلك الجو الصامت المقبل على الربيع صامت حد الموت والسماء التي ارتسمت كلوحة تشوبها بعض ذيول السحب من أثر وقع الهجرة الكاملة لكل مظاهر الشتاء بينما غرفتها المظلمة لا يتوسطها سوى دموعها وصدر إيمان الضعيف، مما يضفي نوعا آخر من الكآبة والحزن على جدران الحياة المتلاطمة في رأس غادة كبحر أعلن الحرب ضد كل السفن فما من منقذ اليوم .

ظل الصمت يلهو في بهو الغرفة لا يشوبه سوى ذلك الأنين المتصاعد في رجفة وخوف من صدر غادة بينما أطبقت إيمان قبضتها جيدا على رأسها لتتلو بعض آيات القرآن وحين شعرت بهدوئها ، تركتها لتنام ولكن بقى داخلها سؤال هل نامت بالفعل، أم أنها مرحلة الخمود أو ربما الهدوء الذي يسبق العاصفة ؟؟ .

تتوالى الأيام على أحمد الذي أرهقته حرب عقله وقلبه الذي لا يعلم له سرا من يوم أن عاد إلى مصر،وربما كانت هناك لعنة من لعنات الفراعنة التي قرأ عنها من فعـــل هوســـه الـــشديد بمجريات الحياة في مصر الفرعونية ، بينما تأسره يوميا نظرات نادية الجميلة ما بين التألم والمعاناة الغامـــضة، وتـــدور بعقلـــه حروب ما بين الأسئلة ومحاولة إزالة كل الفجوات المعلقة على المسافات البعيدة ما بينه وبين غادته الجميلة وسر تواجـــده الآن بين أنياب الغربة الناهشة في عظام قلبه بلا أدنى رحمة أو تردد ، وظلت التساؤلات تؤرق سباته الليلي ليخلد إلى بهو النجوم التي قلما رآها في بلاد الغرب، ولكنه يتحسسها ما بـــين فجـــوات السحاب الناعسة . ظل هكذا الحال به في عالم من الوحـــشة والتردد والحرب الغاشمة، وفى تلك الليلة تعارضت مرآتـــه لـــه صباحا بينما يجهز لعمله كالمعتاد ، وقف حد عينيـــه يتأملـــها وكأنه بالفعل لا يعرف من هو ؟ ثم حدث نفسه هامسا :

" هل بالفعل أحب غادة ؟؟ "

أتاه السؤال كحد سكين تمركز في حدود رقبته بينما ثارت عيناه دون أدنى تردد وبلا علم منه ثم عاد للـــوراء دون وعـــى ليرمق ساعة الحائط فلم يجد سوى تفسير واحد أنـــه لا يطيـــق

الانتظار ليرتمي في أحضان عيون نادية الساحرة ، نعم علـــم في تلك اللحظة أنها ليست الغربة من تسول له المغريـــات ولكنـــه أدرك بالفعل أن غادة قد وقعت من بئر قلبه بلا عودة ، فقـــد تحررت شرايينه دون إشعار مسبق من حـــب قـــديم، ولاذت قدميه بالفرار من جنون قلبه ورغباته الجموحة في حد مسمياته للأشياء ، فقفز خارج المترل بكل ما أوتى من قوة تدفعه أحداث قلبه الجنونية ، فبحثه عن الإجابة أصبح دربا من الرغبة العارمة.

(١١)

أتاه صوت ناديه في الصباح كزهرة مخملية، بينما ارتسمت تلك الابتسامة بنوع من الشغف على جدران ملامحه التي علاها عينان لا تختلفان كثيرا عن وهج الشمس المحاربة مـن أجـل احتلال السماء بعد تسلط السحب العارمة ، تيقظـت أناملـه لتصافحها في سكون وشوق شديدين قائلا :

" صباح الخير يا نادية ؟ "

ابتسمت وبصوت لا يكاد يسمع قالت :

" صباح الخير يا أحمد "

نظرت إليه بعيون متسائلة بينما مالت رأسها قليلا للـيمين بحركة عفوية ثم قالت :

" يبدو عليك الإرهاق الشديد منذ أيام مضت ! هل هنـاك خطب ما لتحدثني به فنحن سويا منذ ثلاثة أشهر، وأظن أننـا أصدقاء كفاية لتقص لي ما بك دون أدنى شك "

رمقها بابتسامة باهتة وتردد قليلا ثم قال :

" لا شيء على الإطلاق فأنت تعلمين جيدا كم هو مرهـق العمل "

نظرت إليه وبدا على ملامحها عدم الاقتناع ثم بنـوع مـن التوسل

" أحمد أخبرني ما بك ؟؟ فحالك لا يعجبني ، ولا تقلق واعتبرني بئر أسرارك " .

ثم نظرت إليه بنظرات فولاذية ثم قالت بنوع من محاولة فتح حديث ما :

" هل حدث شيء ما بينك وبين خطيبتك ؟ هل حدث ربما شيء ما للعائلة بمصر ؟ هل الجميع بخير ؟ فقط حدثني ما بك ؟ فالكبت قد يولد الانفجار وفى الحديث دائما الراحة "

نظر إليها بعيون طفل استسلم لدفء أم ثم قال :

" إنها مجرد مسألة وقت فبالى مشغول قليلا ببعض الأمور بمصر "

ثم بمحاولة ذكية لتغيير الموضوع مع العلم المسبق أنه لم يدرى أنه قد جهز لذلك السؤال منذ أن رآها قال :

" نحن معا لمدة ثلاثة أشهر وقد حدثتيني أنك مرتبطة بأحدهم ولكنك لم تذكري يوما شيئا عنه "

لم تتحدث ببنت شفة بينما قال بنوع من المجازفة وتحطيم الحاجز الأخير

" إن الذي يحب لا يرهق أبدا من الحديث عمن يحب "

حاولت عيونها الهرب متعلقة ببعض الأوراق الملقاة على مكتب أحمد ثم قالت :

" إني لأجدك أنت الآخر رغم حديثك أحيانا عن خطيتك إلا أنني أجده بلا روح تذكر،كما لاحظت أيـــضا ملامحـــك المتباينة عند ذكرها "

نظر إليها بينما غاص في أفكاره محدثا نفسه قائلا :

" هل لتلك الدرجة يبدو علي عدم الارتياح هل استـــسلم الحب حقا في أعماقي وأعلن الاستقلال ، فـــضحتني ملامحـــه وأدوات العشق لغادة حين استكانت وأعلنـــت الهـــروب دون مغزى منها "

وبحث عن الأسباب في قبعة أفكاره مرة أخرى " هل هـــي الغربة ؟ هل الطبيعة البرية المتمثلة في البحار والجبال هـــي مـــا أودت بحبه القديم ؟ هل أصبح حب غادة الآن قـــديم ؟ فلـــم أتصور في نفسي أبدا أن قلبي سيذوب وينصهر كالجليد ليتبقى مجرد مياه قد تضمحل مع مرور الأيام "

قاطعه سؤال نادية بقوة فنظر إليها بتفحص كامل ثم قال :

" لا أدري حقا "

نظرت إليه ناديه نظرة مستكينة ثم قالت :

" إن لم تكن مرتاحا فلم كل ذلك العذاب ، كل ما عليك أن تتركها وتنتظر لتبحث من جديد ".

جاءته كلمات نادية كأنه الحل الذي لم يخطر له على بـــال قط جاءه كهدية عيد الميلاد التي طالما تمناها وكأنه تتـــودد، ثم فاجأته مرة أخرى عندما قالت :

" هذا ما فعلت مع خطيبي عندما شعرت بعدم الارتيـــاح ، فهذا زواج يا أحمد أي أنها حياة ، فإن لم تكن واثقا الآن مـــن شعورك وتشعر بالتردد فعليك بالانسحاب في هـــدوء ، إن لم تكن مقتنعا بالكامل من قلبك فما عليك سوى الرحيـــل مـــن حياة الآخر فهذا خير لك ولها " .

نظر إليها بينما نحشته الكلمات إن لم يمنع ذلك تلك النشوة العارمة التي أصابته من وقع كلماته على عقله الـــذي أصـــيب بارتياح لم يشعر به منذ فترة ليست بالقصيرة ، وحدث نفـــسه بثورة قائلا :

" نعم سأتحرر من ذلك الحب الدميم الذي أصابني بالذبول فإنها مجرد مرحلة تابعة لفترة الجامعة وما توليه من علاقات غير ناضجة " ثم نظر إلى السحاب القاتم الذي أصر على النهوض وإجبار الشمس على الانسحاب مبررا هواجسه هامسا لنفـــسه في قناعة مزيفة

" ليس ظهور نادية هو سبب ذلك ، فأنا في تلـــك الحالـــة بالفعل قبل ظهورها ، نعم أنا على حق ، بالتأكيد أنا على حق"

ثم هامسه صوت نادية مداعبا :

" هيا إلى العمل أيها العاشق "

نظر إليها باسما ثم قال :

" ليكن أستاذتي "

بينما امتلأ المكان بالضحكات والعودة إلى العمل باستماتة مريحة .

لم تمر أيام حتى قام أحمد بوخز القرار في عقله الصغير تاركا كل الومضات الماضية التي تعبر عنه في لوحات تجمعه مع غادة الحب القديم ،وسرت بداخله نشوة حب جديد تملكها عينيّ نادية المتأرجحة في عالمه الجديد، فكم يتمنى أن يكتب ذكريات مستقبلية من الآن عن مستقبل مشرق مع لؤلؤة الجمال في عينيه وصمام الأمان للغربة الواهية في بئر لا قرار له من النفور والعذاب والاشتياق دوما لحضن الوطن .

ارتسمت على وجهه ملامح إنسان تجرد من كل أنواع الأحاسيس، متخذا كل أنواع الصرامة والإتقان الشرير، من أجل الإطاحة بعالمه القديم وعقله المضطرب بين الحب والحنين إلى الماضي .

همس لنفسه في تأكيد تام بينما عبرت عينيه ضباب السماء مستسلما إلى ذلك الرجل المطل بعقله الذي أقنعه بأنه على صواب تام، ثم ترددت ابتسامة نادية الساحرة؛ لتمر سريعا مليء عينيه في جوف السماء ليتأكد قراره أكثر فهمس :

" إنه الحب الأكيد الذي طالما حلمت به ، الحب الناضج في أوج قلبي فلطالما حلمت به كما هو هكذا "

صمت قليلا ثم داعبت يداه السماء في محاولة لإزاحة ذلك الضباب الذي يعيق رؤيته فتسمرت في رهبة أعين غادة الغارقة

في أوج الدموع من أثر فراق ما، ثم ما لبث أن غطاها بالضباب مرة أخرى، ثم بعد بحظات أخرى لمث بحثا حتى وجد تلك الابتسامة النادية أطرافها التي لا تفارق كيانه دوما ربما قبل أن يراها ثم قال :

" نعم لكم حلمت مرات ومرات بذلك الحب الأسطوري، وها هو عائد فى حليته الحاضرة في روح نادية الجميلة "

وفى مباغتة لم يتصورها من عقله سمع تلك الكلمات الثقيلة الوقع على أذانه بصوت غادة

" لا تتركني ..... إني أحبك ..... إني أحبك .... "

صداها يكاد يخترق حواجزه بينما أطبق بيديه على أذنيه كي يسد الفجوات التي يتسلل منها الصوت وحتى لا يستفيق من حمرة حلمة وبشاعة قراره المنتظر دق الأبواق لإعلانه عما قريب .

سرحت عيونه أمام هاتفه بينما ظلت تلهو أصابعه بحثا عن رقم غادة، فقد آن الأوان ليحرر عالمه لأجل احتلال جديد وربما ليحتل هو عالم جديد ، فالحب عالم إما أن تكون أنت المحتل وتسود أحكامك أو تكون أنت المغتصب فتنصاع كل حواسك فليس عليك سوى الانصياع ، نعم فالأمر مقرر الآن غادة مغتصبة وهو محتل بلا أدنى شك بينما يا ترى من تكون نادية هل هي محتلة أم مغتصبه ؟ فلتقرر الأيام إذن .

(١٣)

" ألو .. أهلا غادة كيف حالك ؟ "

وضح في نبرة صوته شيئا يخفق له القلب تـــوترا، لكنـــها حاولت تكذيب ظنونها المستعصية التكذيب ثم قالـــت بلهفـــة متذللة :

" أهلا حبيبي كيف حالك ؟ فكم اشتقت إليك "

لم تحركه نبرتها الحزينة المتشوقة ولا حبه الغافي دوما علـــى قلبها الصغير ثم قال : بحزم كأنه يخطب في إحدى اجتماعاته

" غادة هناك شيء مهم جدا يجب أن نتحدث به "

كأنها تعلم جيدا ما هو آت بالفعل ولكنها على طرق مبللة من وقع مطر وتتمنى لو أن الرعد يأخذ سمعها إلى الأبد فابتلعت ريقها بوهن شديد بينما حاولت الإمـــساك بالهـــاتف بقـــدر استطاعة أناملها الضعيفة وقالت

" إني أسمعك "

ذرفت دمعة من عينيها في غفلة منها، بينما حاولـــت بلـــع الريق مرة أخرى لكنها لم تستطع فقد خارت القـــوى بكـــل الطرق ولا مجال الا بالصدمات الكهربية ثم أردفت قائلة :

" تكلم يا أحمد فأنا أسمعك "

فلا مجال للانتظار أكثر فيكفيها عذاب الجرح المترقب دون رحمة فلا مجال لعذاب الانتظار

في حزم شديد ومحاولة لاكتساب خشونة الظالم قال :

" غادة أنا غير مستريح بالمرة وقد أعددت حساباتي وأرى أنه...؟

قاطعته غادة في وهن شديد فهي لا تريد أن تحمل ذكرياها وقع كلمات لم تتخيلها يوما وكم كانت ترهبها ثم قالت ويكاد ألا يكون صوتها مسموعا :

" لا تكمل فأنا أعلم البقية جيدا "

ابتلعت ريقها تلك المرة بينما نظرت لدبلتها التي تحملها أصابع الحب التي طالما مسحت دموعه وأردفت قائلة :

" أتمنى لك التوفيق دوما مع من تختار وتحب يا أحمد "

أُصيب بالكلمات فكاد أن يضيع بأسه ويتخاذل عن مهمته المنشودة، فبلع ريقه في سرعة واستعاد بأسه ثم قال بنبرة حزن :

" وأنتِ أيضا يا غادة فأنتِ فتاة طيبة وتستحقين كل الخير "

فخر الدمع من عينيها في صمت شديد بينما قالت لنفسها :

" لذلك أنت تتركني الآن فهذا هو الخير الذي استحقه منك لكوني فتاة طيبة وأُحبك "

ما لبث أن أردف قائلا :

" كوني بخير يا غادة واعتبرى أن ما مر بنا ما هي إلا تجربة لنتعلم من الحياة درسا لأجل المستقبل " .

لم تنبث ببنت شفة وأغلقت الهاتف في سكون ، لم تتصور أنها النهاية فلكم تلعن وسائل الاتصالات التي تحجبها عن رؤية أعين الآخرين حين يتحدثون إليها، فمن أقل حقوقها أن تقف أمام ظله القاسي وتنظر لعينيه البريئتين التي امتلأتا قسوة في مهب ريح لا تعلم منبعه ، بينما وقعت من نفسها على الأريكة المصاحبة لها في مشهد اغتيال حبها ،وتسمرت عيونها بتلك الصورة الكبيرة التي يحتلها الحائط التي تعكس أحمد مبتسما في عهد قديم ،فابتسمت بينما لونت الدموع ابتسامتها بلون الكحل الأسود العتيق كليل لا تشوبه رياح فقط السكون الكريه والغامض ، مالت رأسها للخلف محاولة أن تصب بحزنها للوراء علها تفلح في مغافلة عقلها فتزيح من ذكرياته ما مر عليها من لحظات وداع ، ولكنها الدموع تدمى على الجانبين لتلون باقي الوجه المكسور كالزجاج في تقاطع لملامحها مع الدمعات المنبثقة بشغف لترسم ملامحها من جديد . نعم ذهب كل شيء وتبقت هي والدموع ووجه مكسور يحمل قلب تهشم فلكم كانت معظم الأحلام وردية رغم تحقق جزء منها.

(١٤)

يطل من شباك مكتبه بوجه جديد وملامح تشعر بـــالتحرر رغم الحزن الغامض الذي يجتاحه دون أن يعلم ســـبب واحـــد ليخبره ما الحقيقة داخله هل تعجل في اتخاذ قراره ؟ أم أنه أسِف على حزن غادة ومعاناها ؟ أم لعجرفته وأسلوبه الذي تحرر من كل أنواع العطف متجاهلا كل ما أعطته غادة من حنان بينما أطاح بكل شيء،ودفنه في لحظات بين أعذاره الكاذبة وحـــب المستقبل المنتظر ، ارتجف قلبه خيفة لم يعلم من أين أتت ولكنه تجمد جاحظ العينين وإذ بنادية تطل عليه كبـــسمة صـــباحية ووردة عطر شرقية لتأخذه من أحاسيسه المتباينة، فربمـــا يغفـــر لنفسه مع دعم الزمان له بالنسيان

" صباح الخير يا أحمد "

بابتسامة باهتة يملأها الحزن :

" صباح الخير يا نادية ولكنها الحادية عشر ! "

فابتسمت قائلة :

" أنا كل أوقاتي صباحية فلا أؤمن بالظلام فحياتي واضـــحة كالبلورة "

" هكذا إذن "

" نعم بالفعل "

ابتسم ابتسامة خفيفة ونهض من على كرسيه ثم قال :

" تبدين سعيدة يا ترى ماذا هنالـــك ؟؟ اخرجـــي مـــا في جوفك ؟ "

ضحكت ضحكة عالية اهتز لها قلبه والمكان معا ثم قالت :

" يا إلهي أهي جريمة أن أكون سعيدة "

" لم أقل ذلك ولكن إن كنتِ سعيدة فاخبريني ربما تطلقين سهام سعادتك في أنا الآخر "

ضحكت مرة أخرى ولكنها ليست كالأولى ثم قالت :

" لقد قابلت بالأمس أرق وأعذب مخلوق في حياتي فأنت لا تتصور مدى سعادتي به بحق فإنه الرجل المنشود "

نظر إليها بعيون توشك على القفز من وجهه الذي أصـــيب بالاصفرار كما لو أن أصابه المرض فجأة، فالمفاجأة تكاد تكون خيالية في حد تفسير عقله ثم قال بصوت متقطع :

" هل تقصدين .... ؟!!! "

قالت بسخرية ونوع من المزاح

" نعم أيها الأحمق هذا ما أعنيه بالفعل "

نظر إليها طويلا نظرات شاردة ثم ضحك ضحكات عالية كأنه أصيب هستيريا غاشمة ، ثم نظر إليها مرة أخرى وتمايل للوراء في ضحك هستيري ثم توقف عن الضحك فجأة وكأنه أصيب بالجنون، ثم نظر إليها طويلا ثانية بينما هي ناظرة إليه بعيون ووجه لا يفهمان شيئا مما يجرى فأي نكته ألقتها ليضحك بذلك الجنون .

تسمرت عيناه للحظات بها لا تدرك معناها ،وفجأه عاد للضحك مرة أخرى دون مبرر وفتح باب مكتبه وهو لا يتوقف عن الضحك بجنون مستفحل ، وظل يمشى حتى فارق الشركة وهو يضحك وظل يضحك تتخبطه الطرقات، فاستوقفه ذلك المشهد بين عاشقين يحتضنان بعضهما البعض فما لبث أن ظل صامتا ينظر إليهما في ألم وحنين، بينما هاجمته تلك الذكرى بين أحضان غادة في ثورة برد الشتاء، فابتسم ابتسامة لاذعة في سكون بينما وضع يديه في جيوبه وهمس لنفسه في سكون

" لكم أشعر بالبرد " .

بين أحضان غادة في ثورة برد الشتاء، فابتسم ابتسامة لاذعة في سكون بينما وضع يديه في جيوبه وهمس لنفسه في سكون

" لكم أشعر بالبرد " .

٨- الحادث

الأحداث مترابطة جدا ومعقدة للغاية ودوما
تؤدى مجموعة منها إلى كارثة أو ربما انتهاء
شيء ما .. هكذا هي دوما

(١)

مسرعة على قدر كبير ولكن ليس بالضرورة العجلة فكمـــا تقول لها أمها دائما:

" في العجلة الندامة " .

ولكنها دوما لا تسمع إلا لجموح قلبها الكلاسيكي إلى أبعد الحدود ولكن تلك المرة هي العجلة لأجل حبيبها التي لم تلتقيه منذ ما يقرب من أعوام ليست بكثيرة، ولأنها دخلت الـــثلاثين على غفلة منها فالعجلة هي الحل الأمثل .

تلتقي بصديقتها بفرحة عارمة قائلة :

" إنه أتى اليوم وسنتقابل في المكان الـــذي شـــهد أجمـــل ذكرياتنا "

ابتسمت صديقتها التي تعمل معها راقصة في المسرح القومي لبلدهم الملقى على أطراف العالم قائلة بصوتها الهامس دوما :

" كم أنا سعيدة للقائك به "

رقصت في دوائر تلتف حول نفسها في وسط الـــشارع ثم قالت و لم تكف عن الدوران :

" نعم أنا في غاية سعادتي فكنت أعتقد أنني لـــن أره مـــرة أخرى "

نظرت إليها بينما تردد :

" الحب يأتي بالمستحيلات دوما "

فتوقفت عن الرقص ناظرة إليها نظـــرة عميقـــة ثم قالـــت همس:

" التقيت به في السابعة وتلك الحياة تفرقنا دوما ولكنه دوما يعود "

ابتسمت ابتسامة باهتة ثم أردفت قائلة :

" يأتي في سكون ويذهب أيضا في سكون "

نظرت إليها صديقتها ثم قالت بصوت حنون مواسى:

" لا عليك،فإنه دائما يأتي وربما يأتي تلك المرة ولا يذهب "

نظرت إليها والدمع في عينيها :

" إنني أحبه "

فابتسمت الأخرى ابتسامة عريضة ثم قالت:

" أعلم بالرغم من كل نزواتك في غيابه إلا أنني أدرك أنـــه الوحيد الذي امتلك قلبك "

فتراقصت مرة أخرى في الشارع ملتفة حـــول نفـــسها ، يتطاير فستانها في خفة كفراشة بينما تضحك صديقتها بصوت موسيقى كملامحها .

(٢)

" أحضرتُ لك الخاتم سيدتي "

" كم الثمن ؟ "

" كما اتفقنا سيدتي "

" ليكن إذاً "

فتحت حقيبتها الخاصة لتعطه المال ، بينما هاتَفَه أحدهم في نفس الوقت ، ثم ذهبت إلى الباب وركبت سيارتها بينما تذكرت أنها نسيت الهاتف بداخل المحل ، فخرجت مرة أخرى بينما طلب السائق أن يذهب لإحضار أي شيء يصلح للأكل من المحل المجاور فأومأت بالموافقة .

مازال عامل المحل يتحدث عبر الهاتف ولكنها تبدو متوترة، فلم تجد الهاتف ولكن عينيها فيء تساؤل بينما ينظر إليها بابتسامة ثم أغلق الهاتف قائلا:

" لقد نسيت هاتفك ولكنني احتفظت به ، سأدخل لإحضاره حالاً "

عاد بعد دقيقة تقريبا قائلا:

" تفضلي سيدتي "

ابتسمت قائلة :

" أشكرك "

غادرت في سرعة ولكنها لم تجد السيارة في الانتظار التي لم تأت قبل أربعة دقائق أخرى مهدرة من وقتها.

(٣)

"هل تعلمين أني أشعر بأنه لن يذهب هذه المرة ؟"

ابتسمت صديقتها ناظرة إليها قائلة بفرحة :

" إذا ستتزوجينه ؟ "

توقفت فجأة بينما توقف الفستان عن الدوران ، ووضعت يديها وهدأت ملامحها الفرِحة وفي هدوء قالت:

" أتزوجه ؟! "

نظرت إليها صديقتها دون أن تتكلم بينما أردفت مرة أخرى في هدوء أقوى قائلة:

" أتزوجه ؟! "

فهمست صديقتها لها :

" نعم "

فابتسمت وقالت بفرحة :

" لم لا، فإنه ما تبقى من حقائق "

ثم عادت مرة أخرى تدور رقصا تتباهى برونق شبابها وجسدها الذي أكسبه فن الباليه ليونة وجمالا فريدا ، إنها تتراقص كأنه عرضها الأخير في خفة لم تشعرها من قبل .

(٤)

" أين أنتِ ؟! "

" إنني في السيارة "

" لماذا التأخير ؟! "

" لا عليك ، حدثني أين أنت ؟! "

" كما اتفقنا ولكني سأذهب إلى المطعم الفرنسي الآن فهنا المكان مزدحم "

"إذا سأغير اتجاهي ، في خلال عشرة دقائق سأكون هناك "

" ليكن إذا "

" مع السلامة "

" مع السلامة "

(٥)

" إنه الشارع الكلاسيكي الذي يمتلئ بالعاشقين ، المطاعم الفاخرة وعادة ما نتقابل هنا "

" إذا سأنتظر معك وسأذهب عندما يأتي حتى لا أتركك وحيدة وكم أتمنى رؤيته أيضا "

ابتسمت ابتسامة صافية قائلة :

" ليكن إذا ، سيسعد لرؤية صديقتي المفضلة "

ابتسمت ابتسامة عريضة ولكنها لم تتكلم وساد الصمت ثم قالت صديقتها :

" ستتزوجين أخيرا "

فضحكت عاليا ورقصت مرة أخرى ونزلت بأقدامها من على الرصيف تلف في خفة وتصيح قائلة :

" إنني أحب ، سأتزوج ، سأتز..... "

لكنها لم تكمل فقد جاءت السيارة وصدمتها لتطاير بعيدا في خفة ليست كالأولى وتتساقط كورقة أصابها الخريف على مرمى السائق ، والسيدة صاحبة الخاتم التي صرخت دون صوت لهول المفاجأة وشحبت ملامحها كمرآة تواجه الموت ، لقد ظهرت فجاه برقصتها الأخيرة أمام السيارة دون انتباه ، بينما صرخت ملامح صديقتها بكل الأصوات صائحة :

" إنها ستتزوج . لما الآن .؟! "

وقفت شاردة أمام جثتها بينما نزلت جالسة على الأرض ، والرعشات تملكها من الخوف لتجد أنها فارقت الحياة ، فحاولت البكاء ولكنها لم تبك وتحركت ستائر عينيها في سرعة وامتعضت شفتاها وتقابلا حاجباها في حزن شديد ثم همست لها قائلة:

" ألن تتزوجين ؟! "

(٦)

" أين هي ؟ "

" لن تأتي "

" لمَ ؟! "

أخذت نفسا عميقا و بنوع من الحزن قالت :

" الحياة مترابطة ومعقدة للغاية "

نظر إليها وقد بدا عليه الاستياء وعدم الفهم قائلا :

" لم أفهم ! "

نظرت إليه ثم قالت :

" إن لم تنس السيدة هاتفها وإن لم يتحدث صاحب المحل في هاتفه وإن لم يستغرق هو بدوره الدقيقة لإحضار الهاتف وإن لم يذهب السائق لإحضار الطعام الذي كلفه أربع دقائق أخرى وإن لم يكن المطعم مزدحما، وان لم تكن كل أحداث الحياة مرتبطة للوصول إلى نهاية ما لما كان الحادث "

السيرة الذاتية للكاتب

ولد الكاتب والشاعر / عمرو محمد الجندي عام ١٩٨٣ بمحافظة دمياط حيث التحق بمدارس عده ودرس اللغتين الإنجليزية والفرنسية ثم التحق بجامعة قناة السويس فرع بورسعيد كلية تجارة وفي العام الرابع من دراسته التحق بالجامعة الأمريكية ليحصل من خلالها على أعلى شهادة تخصصية في كل من اللغة الإنجليزية والكمبيوتر بكل فروعه ومنها انتقل بعد إنهاء دراسته ليدرس بالمعهد العالي البريطاني اللغة الإنجليزية مما أدى إلى انتقاله ليدرس الأدب الإنجليزي بالمراسلة مع جامعة ليفربول ومن ثم انتقل الكاتب إلى الخليج العربي تحديداً دولة الكويت حيث التقى برئيس الأكاديمية الانجليزية هناك والذي تبنى موهبته ليكتب عمرو في عالم الواقعية الكلاسيكية .. حيث درس العديد من الثقافات وتأثر بالكاتب الكبير وليم شكسبير وملك الواقعية الساحرة غابرييل جارسيا ماركيز ومنه إلى مؤسس الواقعية الفرنسية بلزاك

- تم نشر العديد من المقالات للكاتب بأكثر من جريدة ومجلة منها اليوم السابع ومجلة وسط البلد .

- تم نشر أول دواوينه والذي يحمل اسم (قصة حب سرية) والذي قسمه إلى قسمين :

- القسم الأول : مجموعة من القصائد والتي لها طابع خاص جدا.

- القسم الثاني : نصوص من عمق دراسته (الأدب الكلاسيكي الواقعي والساحر)

• يعمل الآن على باكورة مؤلفاته المسرحية والتي تحمل اسم نوفارينا والتي تم نشر مشهد منها بمجلة وسط البلد

• صاحب مدونات :

○ البحث عن أنا شيء جنوبي

○ على شواطئ عالمي

○ لو بطلنا نكتب نموت

• صاحب حملة لا للتحرش الجنسي على الفيس بوك حيث تم نشر مقالات عديدة له تحمل صيحة ضد تلك الظاهرة .

• معد وصاحب فكرة برنامج (هما نظامهم إيه ؟) الذي يناقش مشاكل المغتربين في إذاعة أرابيسك (صوت المغتربين في ألمانيا) .

الفهرس

إهداء ٥

مقدمة ٧

١- أنا والآخر.................................... ٩

٢- غرفة الانتظار.................................... ٢٩

٣- من أجل الشيطان.................................... ٥٧

٤- عائدة من الموت.................................... ٧١

٥- الانتظار ما بين الموت والحياة.................................... ٨٥

٦- قعدة قهوة.................................... ٩٩

٧- لكم أشعر بالبرد.................................... ١١٧

٨- الحادث.................................... ١٦٣

٦- قعدة قهوة.................................... ٩٩